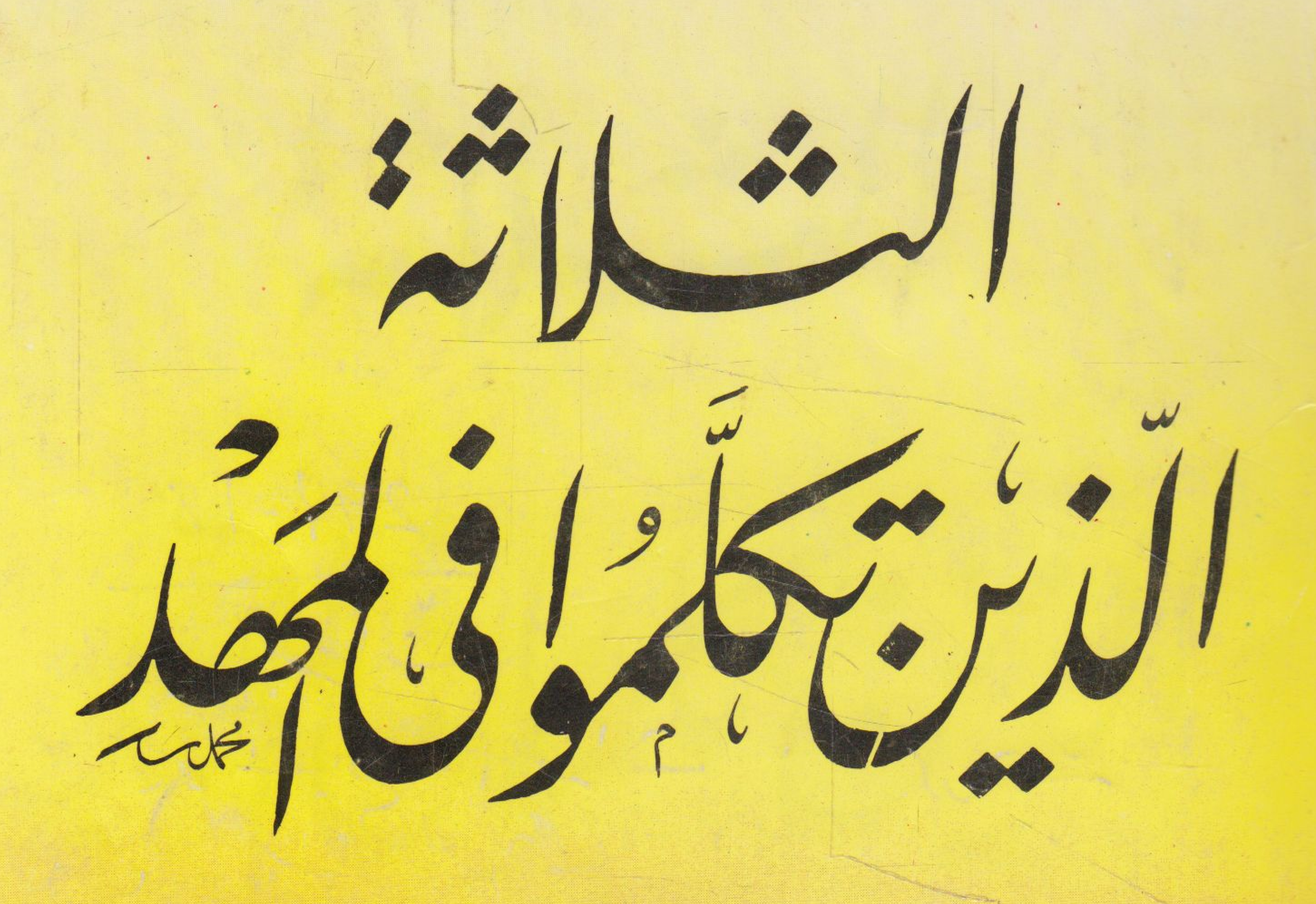
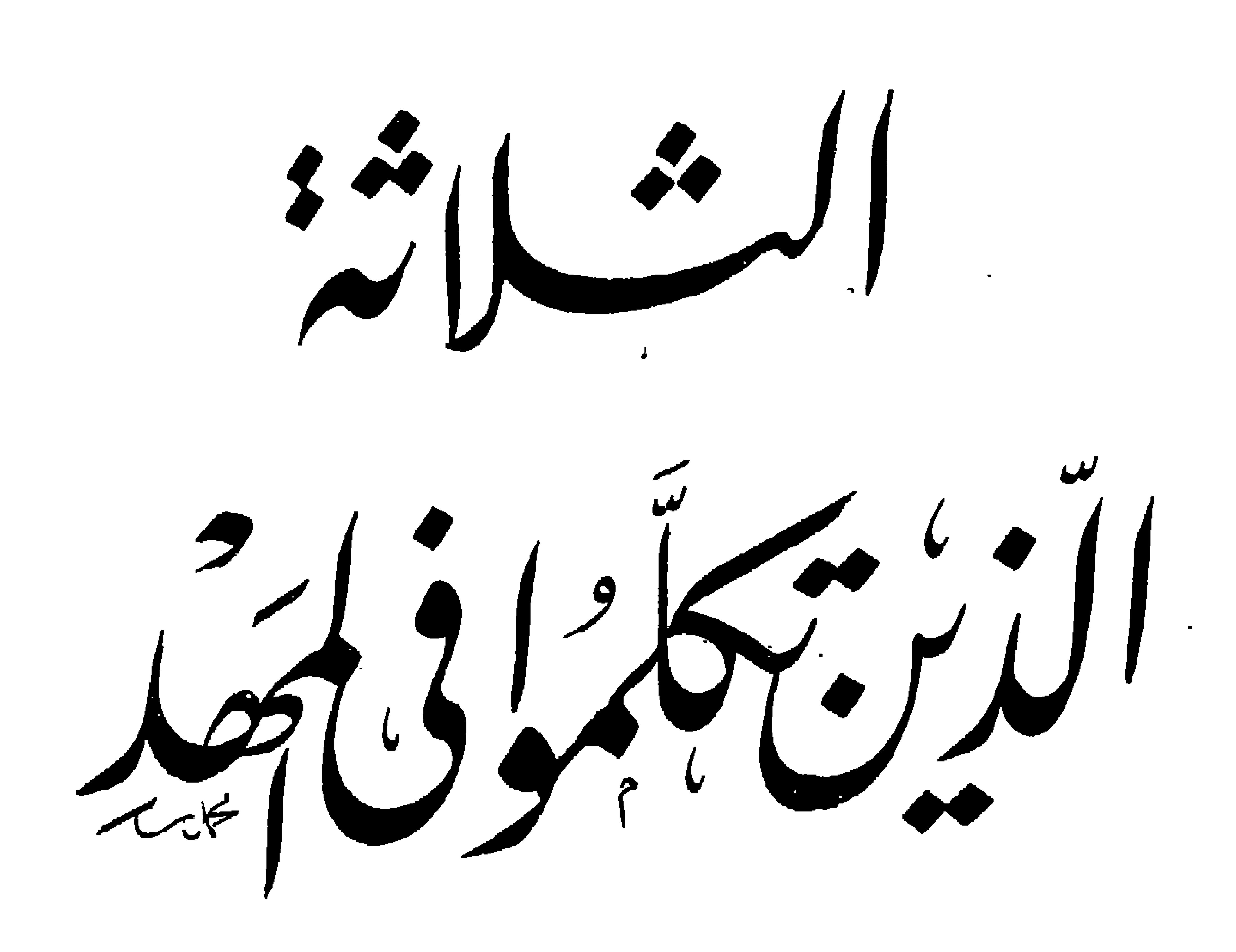


الثلاثة الذين تكلموا في المهد

عادل عبد المنعم أبو العباس

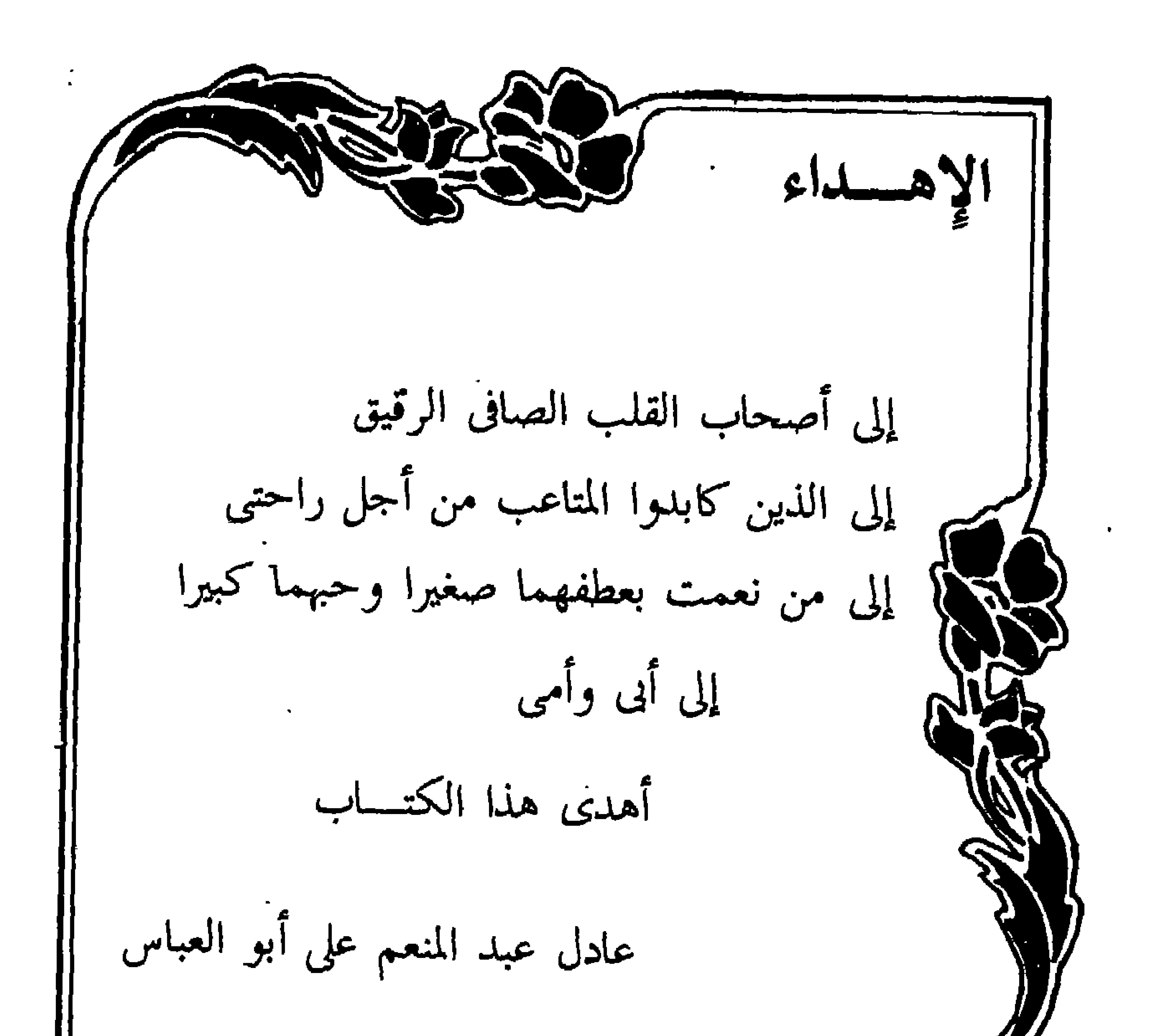
مكتبة القرآن



عادل عبد المنعم أبو العباس

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهــــداء

إلى أصحاب القلب الصافى الرقيق

إلى الذين كابدوا المتاعب من أجل راحتى

إلى من نعمت بعطفهما صغيرا وحبهما كبيرا

إلى أبى وأمى

أهدى هذا الكتـــاب

عادل عبد المنعم على أبو العباس

بسم الله الرحمن الرحيم

« تقديــــم »

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وهداية للخلق أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بخير وإحسان إلى يوم الدين .

أمـا بعــد ....

فما أحوجنا – نحن المسلمين – اليوم إلى عقيدة راسخة تستمد أصولها من كتاب الله الكريم ، وتأخذ منهجها من سنة الرسول الأمين ﷺ . ما أحوجنا – نحن المسلمين – اليوم إلى الاستفاقة من نومنا العميق الذى عشش على الأدمغة فأرخى أعصابها ، وأضعف تفكيرها ، ووقف على القلوب فألقى الران عليها بسبب كثرة ذنوبها وبعدها عن تعاليم ربها .

وما أحرانا فى هذه اللحظات التى نحياها أن نتذكر ونفكر فى قدرة ربنا سبحانه ليزداد إيماننا به قربا ، وبقرآنه وسنة رسوله سلوكا ودربا فقد وجد بيننا – اليوم – أناس يزعمون أنهم وحدهم النجباء

النبلاء وفى أولئك وحدهم فشت عقيدة إنكار الكرامات للأولياء الأصفياء بل إنهم يرمون من خالفهم فى ذلك بأنه جهول ، ويعتقدون أن هذه الكرامات محض افتراء . ولكن

ليعلم هؤلاء أن الأولياء لا يخلقون كرامات ، وإنما هى منحة من الله يعطيها من يشاء من عباده الصالحين .

والقرآن الكريم ، والسنة النبوية ينطقان بذلك نطقا لا دوران فيه فقد أخبر ربنا – سبحانه – أنه أكرم الرجل الصالح بعد موته فى شخص أولاده الأيتام .

وأخبر أنه أحضر عرش بلقيس من مسيرة شهر قبل ارتداد الطرف إكراما لصاحب سليمان .

وأخبر نبينا – صلوات الله عليه – أنه تعالى أكرم بعضهم فحادثته الأطفال فى مهد الصغر إكراما لعبادته ونجاة له من محنته وهذا هو موضوع حديثنا فى هذا الكتاب .

أظهر للمسلمين من خلاله مدى قدرة الله على إظهار المعجزات لأنبيائه حتى يواصلوا المسير ، والكرامات للأولياء حتى يزدادوا فى عبادة الرب القدير ،

وقد أسميته « الثلاثة الذين تكلموا فى المهد » .

والحقيقة أن الذين أنطقهم الله فى مهدهم أكثر من ثلاثة ولكن هؤلاء الثلاثة مجمع عليهم عند العلماء الأعلام ، وما زاد على ذلك فمختلف فيه .

وسوف أسرد لك – أيها المسلم الكريم – روايات الحديث

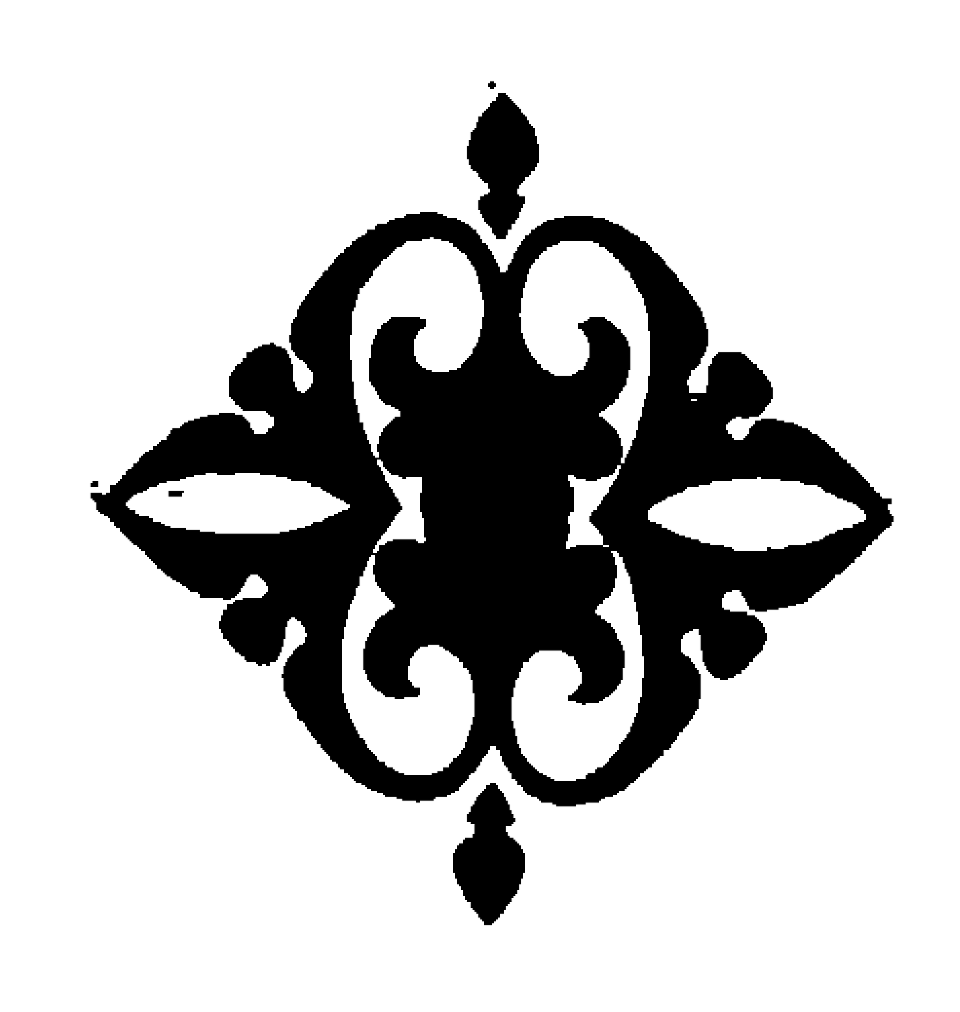
متحدثا بعد ذلك عن الثلاثة بالتفصيل ، وعن غيرهم بالإجمال .

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن ، وأن يجعله فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه نعم المولى ونعم النصير .

« إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلَاحَ مااستَطَعْتُ ومَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللهِ »

الفقير إلى ربه

عادل عبد المنعم على أبو العباس



روايات الحديث

(١) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وكان جريج رجلا عابدًا فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلى فقالت : يا جريج . فقال يارب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريج فقال : أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فلما كان من الغد أتته أمه وهو يصلى فقالت : يا جريج فقال : أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر فى وجوه المومسات[1] فتذاكر بنو إسرائيل جريجا ، وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها فقالت إن شئتم لأفتننه فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعيا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها وقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال : ما شأنكم فقالوا : زنيت بهذه البغى فولدت منك قال : أين الصبى ؟ فجاءوا به فقال دعونى حتى أصلى فصلى فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى فأقبلوا على جريج يقبلونه

---

(١) المومسات - بضم الميم وإسكان الواو وكسر الميم الثانية - جمع مومس : وهن الزوانى .

ويتمسحون به وقالوا : نبنى صومعتك من ذهب قال : لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا وبينما الصبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة[1] ، وشارة[2] حسنة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا فترك الثدّى وأقبل إليه فنظر إليه فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ثم أقبل على ثديها فجعل يرتضع فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه فجعل يمصها ثم قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال : اللهم اجعلنى مثلها فهنالك تراجعا الحديث . فقالت مرَّ رجل حسن الهيئة فقلتُ اللهم اجعل ابنى مثله فقلت اللهم لا تجعلنى مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت فقلتُ اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقلت اللهم اجعلنى مثلها قال : إن ذلك الرجل جبار فقلت اللهم لا تجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلتُ اللهم اجعلنى مثلها »[3] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم »[4] .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) دابة فارهة : أى حاذقة نفيسة . (٢) الشارة : الجمال الظاهر فى الهيئة

(٣) الحديث متفق عليه انظر رياض الصالحين ص ٨٢ رقم ٢٦٢ ط الشمرلى وانظر أيضا صحيح مسلم . كتاب الأدب ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ جزء ١٦ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره .

يقول : ما تكلم مولود من الناس فى مهد إلا عيسى بن مريم وصاحب جريج قيل يانبى الله وما صاحب جريج قال : فإن جريجا كان رجلا عابدًا فى صومعة له وكان راعى البقر يأوى إلى أسفل صومعته وكانت امرأة من أهل القرية تختلف إلى الراعى فأتت أمه يوما فقالت ياجريج وهو يصلى فقال فى نفسه أمى وصلاتى فرأى أن يؤثر صلاته ثم صرخت به الثانية فقال فى نفسه أمى وصلاتى فرأىَ أن يؤثر صلاته. ثم صرخت به الثالثة فقال أمى وصلاتى فرأى أن يؤثر صلاته فلما لم يجبها قالت لا أماتك الله يا جريج حتى تنظر فى وجه الموسات ثم انصرفت فاتى الملك بتلك المرأة ولدت فقال ممن ؟ قالت من جريج قال أصاحب الصومعة قالت نعم قال اهدموا صومعته وائتونى به فضربوا صومعته بالفوس حتى وقعت فجعلوا يده إلى عنقه بحبل ثم انطلق به فمر به على الموسات فرآهن فتبسم وهن ينظرن إليه فى الناس فقال الملك ما تزعم هذه قال ما تزعم ؟ قال تزعم أن ولدها منك قال : أنت تزعمين قالت نعم قال أين هذا الصغير قالوا هذا فى حجرها فأقبل عليه فقال من أبوك قال راعى البعير قال الملك أنجعل صومعتك من ذهب قال لا قال : فما نجعلها قال ردوها كما كانت قال فما الذى تبسمت ؟ قال أمرا عرفته أدركتنى دعوة أمى ثم أخبرهم[1]

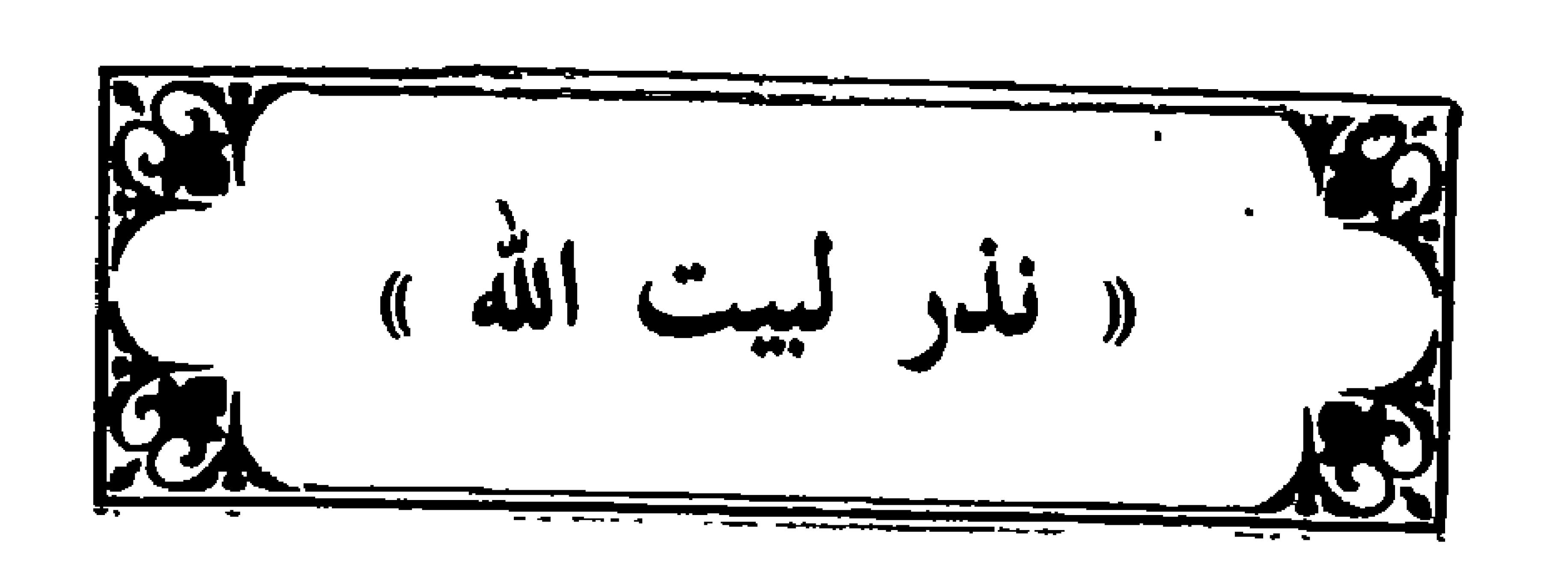
---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ص ٨ .

الفصل الأول

أول ثلاثة تكلموا فى المهد

- نذر لبيت الله .
- أمه فى محرابها .
- بشـــارة .
- دورة الخلق .
- شهادة من المهـــد
- شباب طاهـــر
- إلى بنى إسرائيـل
- طلب وعطـاء
- وقد خاب من افترى
- معك على موعـــد
- عبد من عباد الرحمـــن
- من عقيدتنـــا



فى بيت كله صلاح وهدى ، وعفاف وتقى ، وحب وصفاء ، ومودة وإخاء جلست امرأة عمران – صاحب البيت – تنظر إلى طائر يطعم فرخه ويداعبه ، ويحنو عليه ويلاعبه ، وازدادت نظراتها عندما شاهدت الطائر يضع صغيره تحت جناحيه حماية له من أن يصاب بسوء .

وأخذ خيال المرأة يسرح عبر هذه السنين الطوال التى انقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ، ويلعبون ويفرحون ويبعدون عنها وحشة الوحدة والسكوت .

لقد كبرت سنها ، ووهن عظمها ، وشاب رأسها . وفى لحظة هذا الخيال السارح نظرت امرأة عمران إلى السماء ، وأسرعت برفع أكف الضراعة إلى بارئها قائلة فى خشوع وخضوع :

« اللهم لك علىَّ إن رزقتنى الولد أن أتصدق به على بيت المقدس »

هكذا دعت المرأة ربها :
وهكذا نذرت إذا استجاب الله لهـا !

وكان السبب فى نذرها – كما يقول ابن إسحاق – أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت .

واستجاب الحق سبحانه دعاء هذه المرأة الصالحة . وكيف لا يستجيب سبحانه وشروط الدعاء كاملة فيها وفى دعائها فهى من بيت مشهود له بالرشاد والصلاح ، بل إن الشاهد على ذلك هو الإله الكبير المتعال ﴿ **إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾[1] .

وحاضت المرأة المسنة من فورها ، وانقطع الحيض عنها ، وواقعها بعلها فحملت من وقتها .

ومرت الأيام سراعا – وما أسرع الأيام – وأحست امرأة عمران بجنين يتحرك فى أحشائها .

وسالت عبرَاتُها فرحاً ، وعادت ذاكرتها إلى الوراء ، وكأنها أرادت أن تجدد النذر الذى نذرته يوم أن دعت ربها ، فتوجهت إليه سبحانه – قائلة :

﴿ **رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[2] قال الزجاج :

وكان على أولادهم فرضا أن يطيعوهم فى نذرهم وأن يوافوهم بنذرهم واشتدت سعادة امرأة عمران بهذا الجنين وأخذ التفكير يدور بخلدها إنها تفكر فى صورة هذا الجنين الذى تحمله .

تفكر فى عينيه – فى ملامحه – فى شبابه ، فى مستقبله ومكانته بين سدنة البيت وفقهائه ، فى علمه وفهمه ، ...

---

(١) آل عمران : ٣٣ .
(٢) آل عمران: ٣٥ .

ولكن هذا التفكير كله ، كان يدور حول صورة مولود ذكر ولم يدر بخلدها أبدا صورة الأنثى .

ومرت الأيام ، وانتهت شهور الحمل ، وجاء موعد الوضع وكانت المفاجأة والدهشة .

لقد جاء المولود أنثى !

وارتبكت امرأة عمران ، وفكرت فى المقادير ، وحارت فى نذرها لأن الأنثى من شأنها الضعف وقد لا تستطيع أن تخدم فى المعبد كالذكر ولكنها سرعان ما اتجهت إلى بارئها كالمعتذرة أو الآسفة قائلة :

﴿ رَبِّ إِنِّى وضَعْتُهَا أُنْثَى واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وضَعَتْ ولَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَتَهَا مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ ﴾(١) .

ويستجيب الجواد الكريم مرة أخرى ..

فقد استجاب لها يوم أن طلبت منه هبة الولد ..

وها هو ذا يستجيب دعاءها **﴿ وإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَتَها مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ ﴾** .

فلم يجعل للشيطان عليها سلطانا لأنها من عباده الطاهرين :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(٢) .

(١) آل عمران : ٣٦ .

(٢) الإسراء : ٦٥ .

بل إنه زاد لها فى التكريم والتطهير فخصها بإبعاد الشيطان عنها يوم ولادتها .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما من مولـد يولد إلا نخسـه الشيطان فيستهل صارخا ، من نخسة الشيطان. إلا ابن مريم وأمه – ثم قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿ **وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾[1] وعنه أيضا عن رسول الله ﷺ قال : كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولادته إلا مريم وابنها »[2]

ويتقبل الحق سبحانه – اعتذار امرأة عمران ..

ويقبل المولودة الكريمة ، ويضفى عليها رحمته وعنايته .. ويعبر الذكر الحكيم عن ذلك بقوله :

﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً** ﴾[3]

ويظهر أن عمران – والد مريم – قد مات قبل أن تولد ابنته لذا يقول السدى :

انطلقت بها أمها فى خرقها وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ . أنا أحقكم بها ، عندى أختها فأبوا وخرجوا إلى نهر الأردن ، فاقترعوا وألقوا أقلامهم التى يكتبون بها ، فجرت الأقلام ، وثبت قلم زكريا فكفلها .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه باب فضائل عيسى بن مريم جـ١٥ ص ١٢٠ .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه باب فضائل عيسى بن مريم جـ١٥ ص ١٢٠ .
(٣) آل عمران : ٣٧ .

ويذكر القرآن الكريم هذه الحادثة ، حادثة الاقتراع فى قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[1] .

ويذكر ابن عباس - أن عدد المقترعين كانوا سبعة وعشرين رجلا . فقالوا : نطرح أقلامنا فمن صعد قلمه فهو أحق بها فصعد قلم زكريا .

فعلى قول ابن عباس كانت غلبة زكريا بمصاعدة قلمه .

وعلى قول السدى كانت غلبته بوقوف قلمه فى جريان الماء وأياما كان من أمر الاقتراع فإن الكفالة كانت لزكريا بنص القرآن ﴿ وكَفَلَها زَكَرِيَّا ﴾[2] .

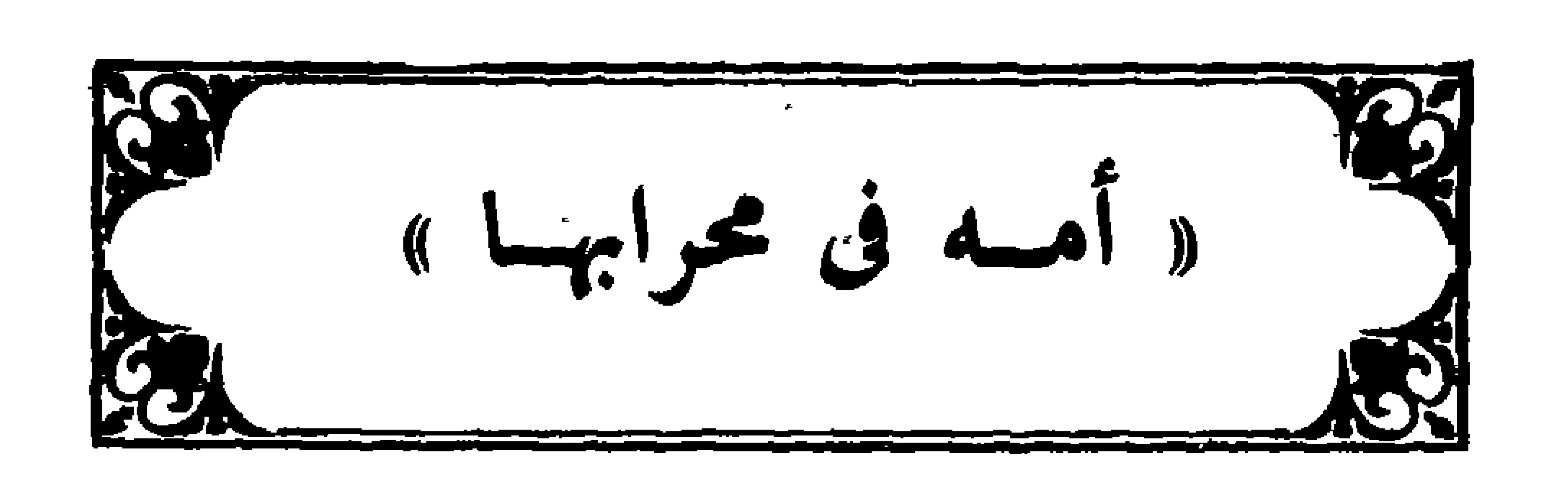
وأخذها عليه السلام إلى بيته ، وصب عليها وابلا من العطف والرعاية ، والمحافظة والعناية .

وأخذت - مريم - تنمو وتترعرع وتشب فى كفالة هذا البيت الصالح وأصبحت قادرة على الحركة والعمل .

ها هى قد صارت شابة يافعة تستطيع أن تقوم بخدمة المعبد .. وها هو زكريا - عليه السلام - يضع لها التوجيه السديد فى كيفية خدمة البيت المقدس توفية لنذر أمها ، ويتخذ لها مكانا شريفا فى البقعة الطاهرة تتعبد فيه ، وتؤدى ما عليها من خدمات وعمل .

---

(١) آل عمران : ٤٤ .
(٢) آل عمران : ٣٤ .



« أمــه فى محرابهــا »

دخلت – مريم – محرابها[1] – وابتدأت فى أداء عملها .

وكان – عليه السلام – يغلق عليها الباب ومعه المفتاح – لا يأمن عليها أحدًا وشقت هى الطريق إلى عبادة الله ، تقوم الليل بين يديه سبحانه وتعمل النهار فى طهارة بيته جل جلاله ، وأصبح بنو إسرائيل يضربون بها المثل فى الطاعة والعبادة ، وبدأت الأحوال الكريمة تظهر عليها حتى إن نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقا غريبا فى غير أوانه فيأخذه العجب !

يجد فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف !

ويعبر القرآن الكريم عن هذه الكرامات الشريفة بقوله :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .

هكذا بدأت الكرامات والنفحات ، تتنزل على الطاهرة العفيفة

---

(١) المحراب فى اللغة والموقع العالى الشريف قاله الزجاج والمقصود به هنا الغرفة .

(٢) آل عمران : ٣٧ .

الناشئة على النقاء والصفاء ، والبعد عن كل ما يغضب ربّ الأرض والسماء بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد من التكريم – أعنى وقوع الكرامات – فقد ابتدأت الملائكة الكرام تتصل بها ، وتتنزل عليها مبشرة إياها برضا الرب سبحانه ، ومطالبة بالزيادة فى العبادة للواحد المعبود .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إنَّ الله اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نساء العَالَمينَ ، يَامَرْيَمُ اقنتِي لِرَبّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[1] .

حدثنى بربك – أيها المسلم الكريم –

هل سمعت تشريفا وتكريما لامرأة كهذا التكريم ؟

هل سمعت عن امرأة اصطفاها وطهرها رب العالمين كسماعك عن هذه العفيفة الطاهرة ؟

إنها امرأة كاملة بشهادة ربها .

كاملة فى عفتها ونظافتها .

كاملة فى عبادتها وطاعتها وحفظها لبكارتها .

كاملة فى حبها لربها .

كاملة فى بعدها عن كل دنس يشوه سمعتها .

وتزكت البتول العفيفة ، وأصبحت ترى ملائكة الرحمٰن تتحدث إليها ، وتسدى لها النصح والإرشاد وتوجهها إلى طريق

---

(١) آل عمران : ٤٧ .

الحق والرشاد وزادت شفافية القلب والجوارح – فهى لله خاشعة ، والجلود من خشيته مقشعرة ، والجسدكله يلهج بذكر صانعه ليل نهار .

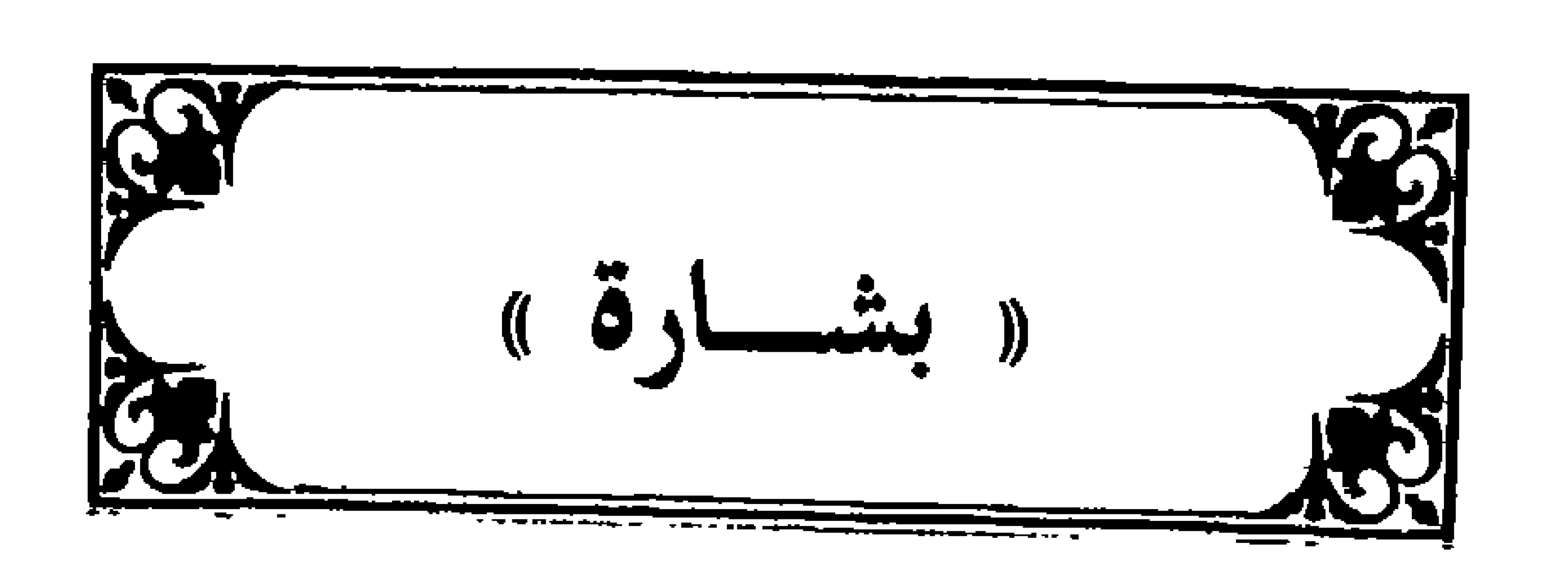
وسجل اسم مريم فى قائمة المقربين .

يقول الغزالى : « إن السالكين فى ابتداء الطريق عندما تصفو نفوسهم يرون الملائكة » واستدل بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذينَ قَالُوا رَبُّنا الله ثم اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ ﴾[1] .



(١) فصلت : ٣٠ .



وفى يوم من الأيام جاء سفير الملائكة إلى مريم ولم يكن المجىء فى هذه المرة للتوجيه والإرشاد ، وإنما ليزف إليها شيئا غريبا وأمراً عجيبا !

فبينما كانت العائشة بكل طهر وعفاف ، المنزهة عن كل دنس وإسفاف المثابرة على الصلاة والصيام ، يوما ما وحدها . إذا بجبريل الملاك .

وقد دخل عليها مخدعها على صورة فتى !

وهنا أخذ الرعب يدب إلى قلب مريم فلقد ظنت أنه يريد بها سوءًا فاستعاذت بالله منه !

ولكنه سكن روعها وطمأنها وأبان لها أنه مبعوث من قبل القادر المقتدر ليزف إليها أعجب البشريات !

ليهب لها غلاما زكيا !

ويأخذ مريم العجب . إذ كيف يكون لها ولد وهى لم يمسها أحد من الناس ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾[1] .

---

(١) هود : ٧٢ .

ولكن الملك هون الأمر عليها ، وأحاله على قدرة الله وهو الرب الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء !

ثم نفخ فى جيب درعها فى الحال - فإذا هى حامل !

وكان فيما أخبرها الملك به أن ابنها يسمى المسيح عيسى بن مريم .

وأنه سيكون وجيها فى الدنيا والآخرة .

وأنه ... وأنـه ...

وتعال بنا - أيها المسلم - الكريم - لنقرأ سويا ما حدث من هذه البشارة العجيبة - على لسان القرآن الكريم - تصديقا لما قلناه ، وبرهانا على ما سطرناه .

﴿ إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، وَمِنَ المُقَرَّبِينَ وَيكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ وَكَهْلاً ومَنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمسسنى بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخلق مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونَ وَيُعلمهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[1] .

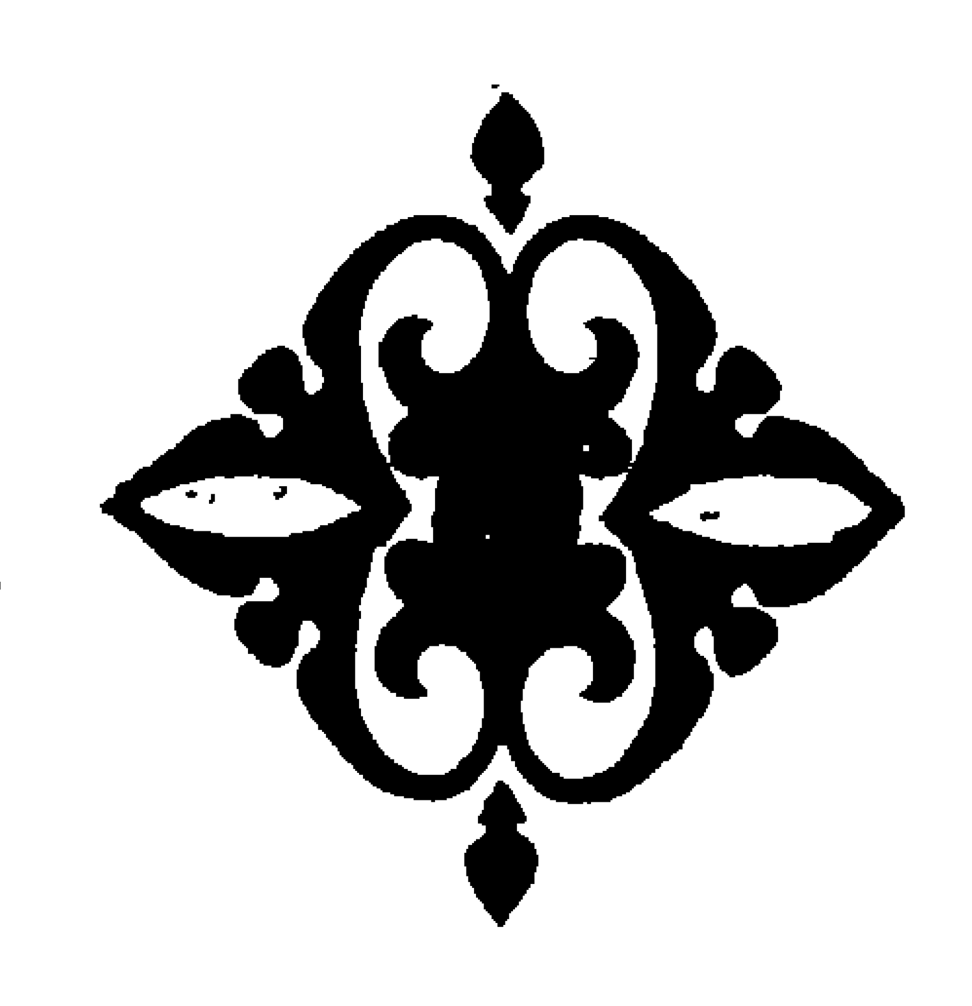
وزيادة فى التوضيح ، وحبا فى بلاغة القرآن ، تعال لنستمع سويا إلى هذا الحوار القرآنى من سورة مريم فقد قال سبحانه :

﴿ واذْكرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِا انْتَبَذَتْ مِنَ أَهلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً فَاتَّخذَتْ مِنْ دوُنِهِمَ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا روحَنا فَتَمثَّل لَهَاَ بَشَراً

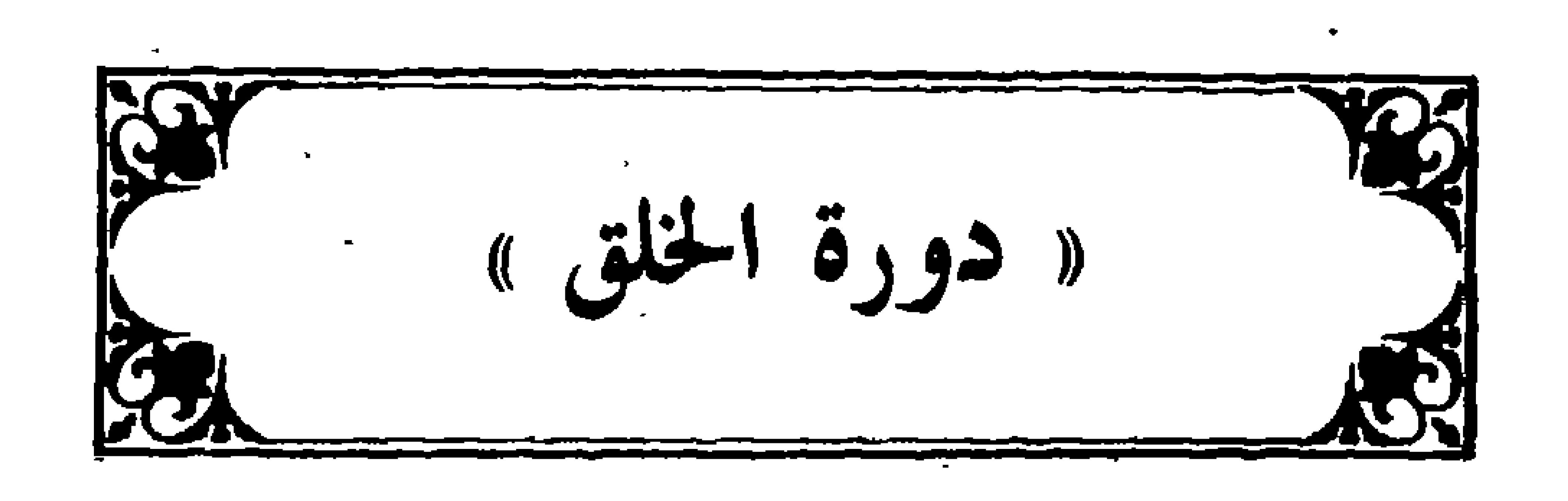
---

(١) آل عمران : ٤٥ - ٤٨ .

سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحمـٰنِ مِنكَ إِنَ كُنتَ تَقِياً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامَاَ زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسنِى بَشَرٌ ولَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربُّكِ هُوَ عَلىَّ هَيِّنٌ ولنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمرًا مَقضِيًّا ﴾[1] .



(١) مريم : ١٦ — ٢٠ .



« دورة الخلق »

حملت مريم - عليها السلام - بمجرد نفخ الملك فى درع جيبها !

وطبيعى أنها قد مرت بجميع أدوار الحمل ، والحقيقة أن القرآن الكريم لم يذكر عن تلك الأدوار شيئا لا من قريب ولا من بعيد ومن هنا دار الخلاف بين العلماء الأعلام فى مدة الحمل !

يقول الإمام البيضاوى :

وكانت مدة الحمل سبعة أشهر ، وقيل سنة ، وقيل ثمانية ، وقيل ساعة ، وقيل أقل :

ولكن الذى نميل إليه أن كل هذا تكلف من أصحاب هذه الأقوال لأن أمره فى الحمل لما كان عجيبا ، أرادوا أن يجعلوه فى مدة الحمل أعجب وليس عندنا نص صريح فى كتاب أو سنة يثبت صحة ما قاله العلماء والأليق أن يحمل الأمر على طبيعته .

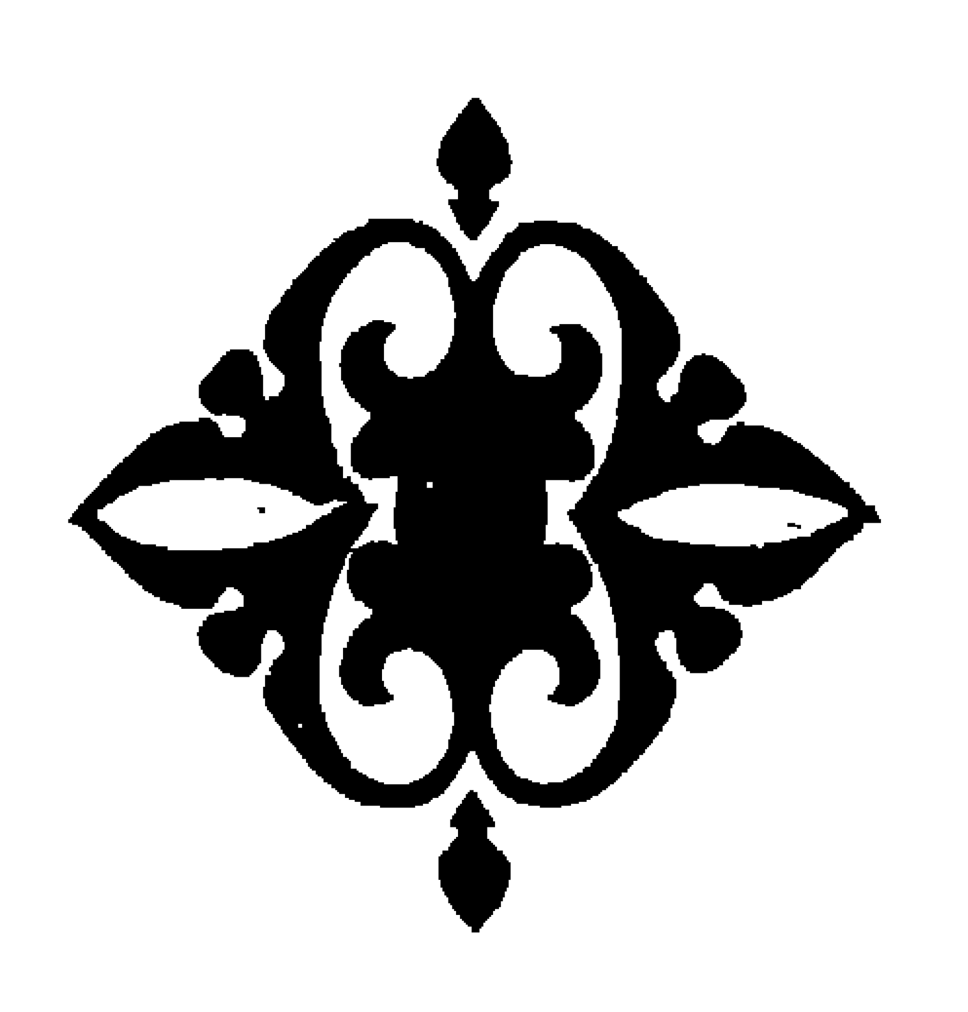
والمهم هو أن بطن مريم بدأت فى الارتفاع والانتفاخ ، وبدأت معها الآلام النفسية التى تعرضت لها بسبب ابتعادها عن الناس اتقاء ألسنتهم الحداد .

فلو كان الأمر يهمها وحدها لكان سهلا هينا فهى صديقة طاهرة عفيفة عالمة بمشيئة الله ، وقدرته على فعل ما يستحيل على العقل البشرى تصديقه .

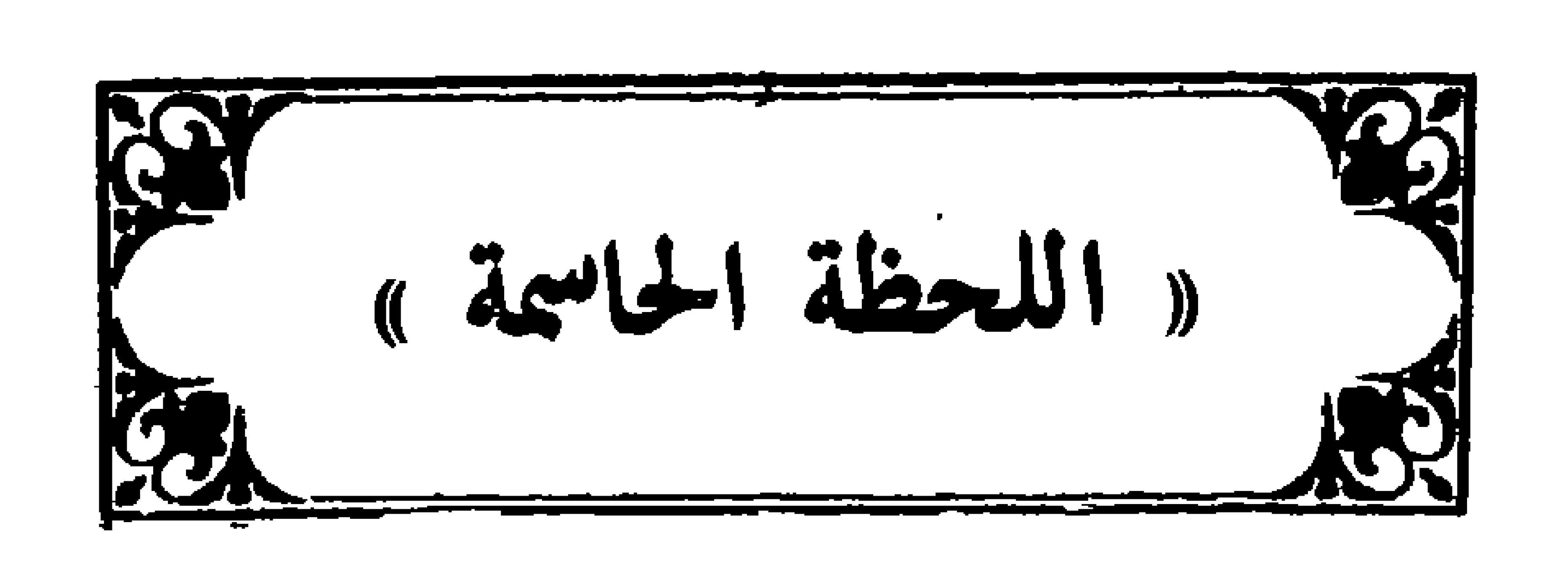
ولكنها ستواجه المجتمع الذى يذكرها بالخير فى عبادتها . وهى موجسة خيفة أن يغضب الشعب عليها لأنها حبلى !

ومن هنا يستطرد الذكر الحكيم فى ذكر الآلام النفسية التى تعرضت لها مريم قائلا على لسانها :

﴿ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسيّاً ﴾[1].



(١) مريم : ٢٣ .



« اللحظة الحاسمة »

ودارت الأيام دورتها ، وبطن مريم تزداد فى الانتفاخ وانتهت مدة الحمل وجاءت اللحظة الحاسمة ، وحان موعد انفصال الجنين وألجأها ألم الولادة إلى أن تركن إلى جذع نخلة لتستند إليـه وتستتـر به ، وكان الزمن شتاء . وكانت النخلة يابسة .. وعناية الله ترعاها . وبعد أن وضعت مريم وليدها حدثت عدة عجائب فقد أثمرت النخلة ، وأمرها الملك بهزها ، والأكل من رطبها !!

ونهاها عن التحدث إلى الناس وبألا تكلم أحداً منهم ..

ومن هذه اللحظة حسبت مريم ألف حساب وحساب ، لما هى قادمة عليه من لوم اللائمين ، ونظراتهم الوقحة ، وتهكمهم البذىء ، وتقريعهم السىء . ما الذى سيقوله أصحاب الألسنة الحداد ؟

بأى شىء سيتهمونها ؟

وهل سيصدقونها حتى ولو أقسمت لهم الأيمان المغلظة على عفتها وطهارتها ؟ هل سيتذكرون صلاحها الذى كان يمدحونها به ؟

كل ذلك كان يدور بخلد مريم البتول الطاهرة بعد أن وضعت وليدها لا عليك يا مريم .

لا يشغلنك هذا الأمر فإن الذى وهبك هذا الغلام بقدرته،

سيبرئك من كل دنيئة بمشيئته .

ما عليك إلا أن تستجيبي لما أمرك به الملك من الصوم عن الكلام ثم دعى ربك يتولى البرهنة على نقائك وعفافك وطهارتك ويأبى القلم إلا أن تستمع إلى ما قاله الذكر الحكيم فى ذلك فماذا قال ؟

قال : ﴿ **فَحَمَلَتهَ فَانْتَبذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسياً مَنسياً فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تحزنى قَدْ جَعلَ رَبُّكِ تحتك سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجْذِعِ النَّخْلَةِ تَسَاقَطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنيًّا فكلِي وَاشْرَبِي وَقَرِي عَيناً فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ للرحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إنسِيًّا** ﴾[1].

واستجابت البتول لنصيحة الملك فقد أخذ الناس يمرون عليها ويسخرون منها ، ويرمونها بأخس الألفاظ وأوقحها .

وجعل بعضهم من نفسه بوقا لإذاعتها .

مريم حملت سفاحا !

وابنها ثمرة علاقة محرمة آثمة !

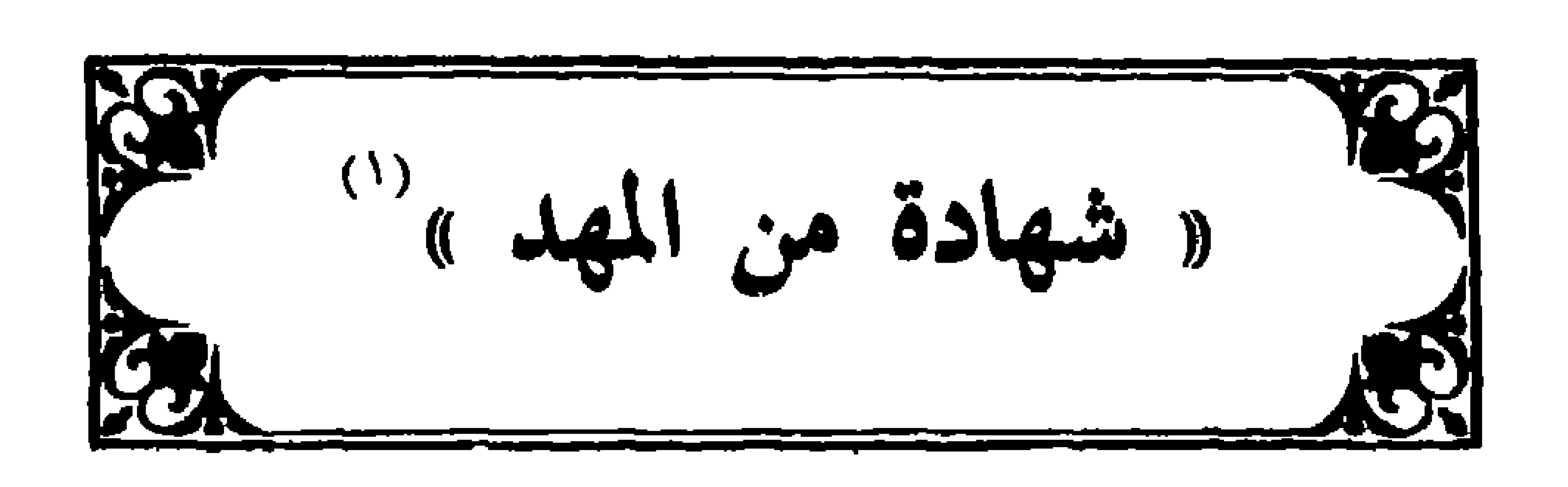
كانت أقاويل الناس كالمدى تقطع من مريم الأحشاء .

وكانت نظراتهم المتبجحة وضحكاتهم الساخرة عند مرورهم بها تسرى فى جسدها كالسم الزعاف !

وكان لابد من المواجهة والدفاع عن النفس .

---

(١) مريم : ٢٢ - ٢٦ .



« شهادة من المهد »[1]

ها هى مريم قد حملت وليدها ، وذهبت به إلى قومها ، وما أن وصلت إليهم حتى قابلها القوم كالجلادين .

من هذا ؟

وابن من هذا ؟

ومن أين أتيت به ؟

ومن أى رجل حملت ؟

أهكذا تفعلين يا أخت هارون[2] .

إن أباك كان صالحا ، وإن أمك كانت أبعد الناس عن البغى .

وفزعت مريم فهى صائمة عن الكلام وتلفتت حولها فلم تجد أحداً تستنجد به غير هذا الرضيع الذى تحمله فأشارت إليه فى يأس

---

(١) المهد : هو ما يمهد للطفل من الفراش .

(٢) ذكرت دائرة المعارف الإنجليزية أن القرآن قد غلط غلطا تاريخيا حين قال : ياأخت هارون فى سورة مريم مع أن بين مريم وهارون أخى موسى مئات السنين ، وقد غفلوا عن أن الأخوة تطلقه فى لسان العرب على الأخوة الشبيهه فالمراد يامن اشبهت هارون فى الصلاح والتقوى ، ما الذى غير حالك إلى ضده . انظر فى ذلك المنتخب فى تفيسير القرآن .

واستكانة فسخر القوم منها إذ كيف يكلمون طفلا فى مهده لا يستطيع الإفصاح عن شيء وهنا حدثت المعجزة ، ونطق الغلام ، وأفصح وأبان .

اقرأ – أيها المسلم الكريم – هذه الآيات الواضحات من كلام رب الأرض والسماوات لتعلم من خلالها ما قاله الصغير فى مهده :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًا يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرأَ سوءٍ وَمَا كَانَتْ أُمّكِ بَغِياً فَأَشَارَتْ إِلَيهِ قَالُوا كَيْف نُكَلّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا قَال إِنِي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنمَا كُنتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلاةَ وَالزَّكَاةِ مَا دُمَتُ حَيًّا وَبرًّا بوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلنِى جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلاَمُ عليَّ يومَ وُلِدتُ وَيَومْ أَمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1] .

هل سمعت وأبصرت ؟

هل وعيت وتدبرت ؟

هذا هو القرآن الكريم الحق من لدن الرحمٰن يرفع مريم وابنها عن قالة السوء ، ويطهرها من الدنس والفاحشة .

ويرفعها من درك الزانيات والبغيات إلى مرتبة الطهر والعفاف بل إلى درجة القداسة والصديقية وهى التى رماها قومها بالدنس يرفع عن ابنها نجاسة الأصل وسوء المنبت !

---

(١) مريم : ٢٧ – ٣٠ .

هذا هو القرآن حديث الرحمٰن يؤكد معجزة الميلاد ، **ويوضح نطق** الطاهر فى مهده ، ويجعله وأمه آية للعالمين ، ويقضى على شائعات اليهود وتشككات النصارى .

ياسبحان الله !

طفل فى المهد لم تمض على ولادته أوقات معدودات ينطقه القادر المقتدر ليؤكد به براءة أمه وخلو ساحتها .

طفل فى المهد ينطقه ربه ليدفع به عن أمه ألسنة السوء وسياط التقريع .

يا سبحان الله !

طفل فى المهد يبين الله فيه آثار قدرته وعلمه وحكمته وإعجازه للجن والإنس والملائكة ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ويبطل به دعاوى السفهاء الوقحاء ، ويقطع دابر الشكوك والترهات ويعيد لأمه عفافها وطهارتها وبراءتها وتكريمها وصدق الله العظيم .

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾(١) .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

---

(١) التحريم : ١٢ .
(٢) الأنبياء : ٩١ .

إى ورب الكعبة المشرفة .

إنه آية للعالمين تظهر من خلاله قدرة الرب جل قدره .

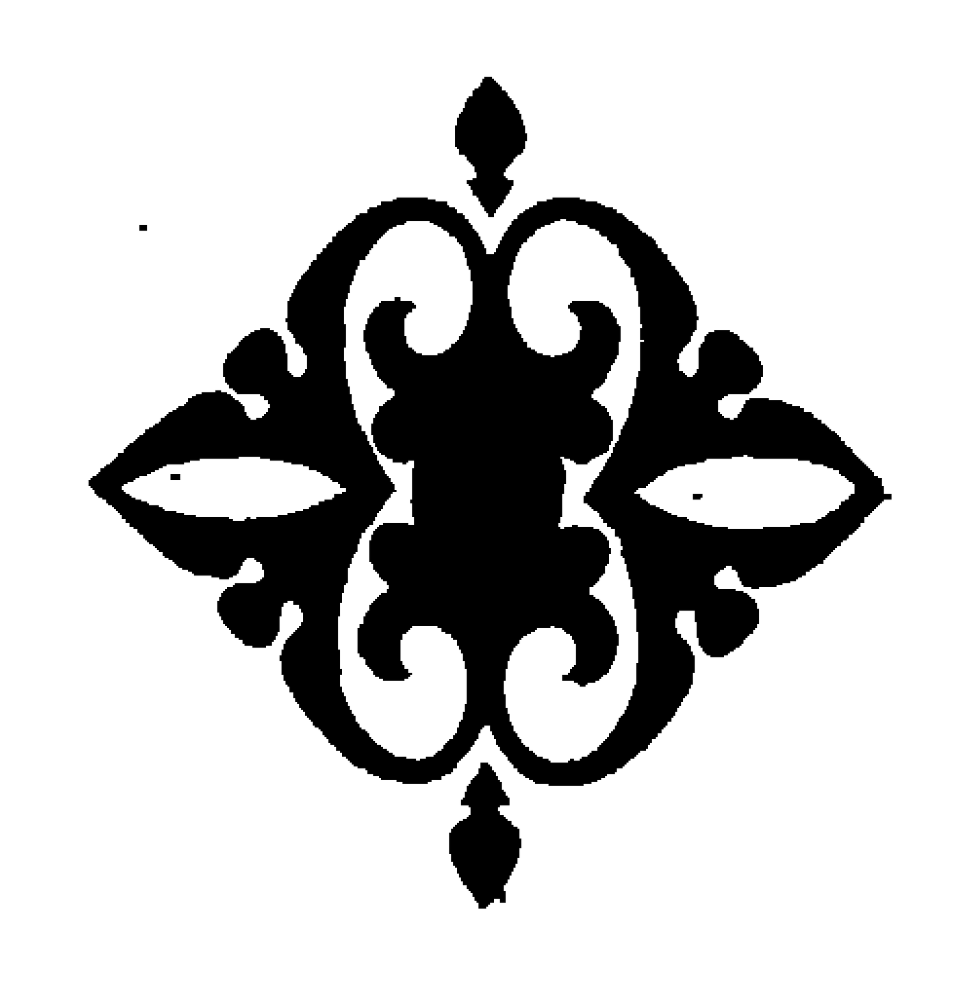
آية فى حمله ووضعه .

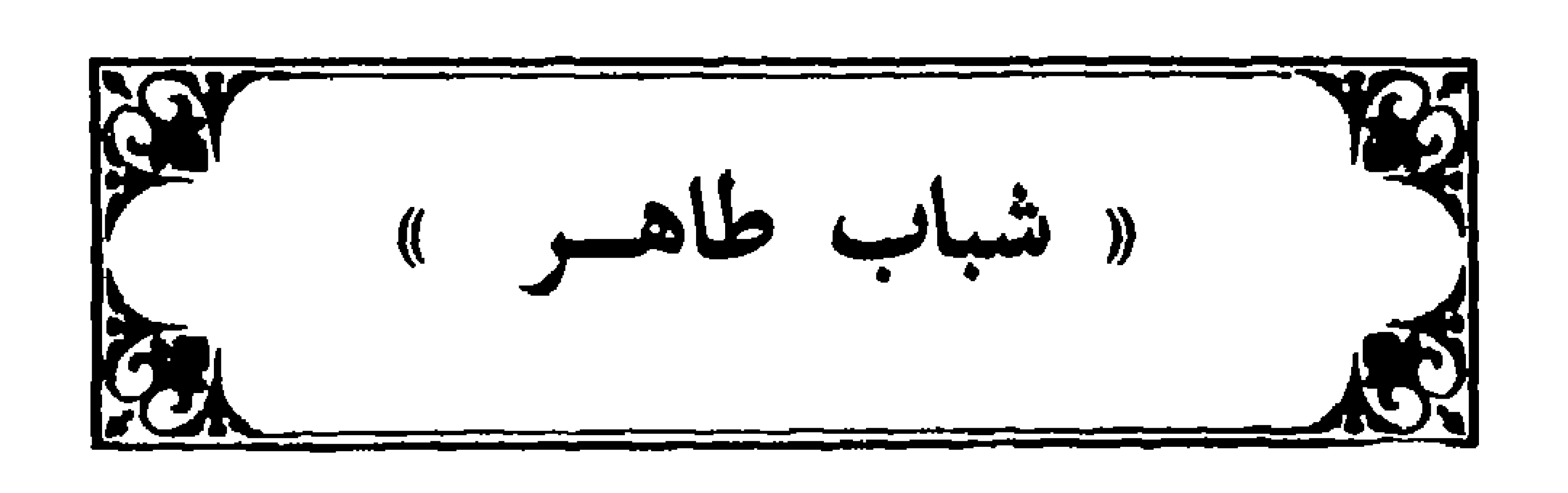
آية فى بره ونطقه .

إنه الطفل المعجزة فى حياته بأسرها .

ولكن ؟

لا تظنن فيه – أخا الإسلام – فوق هذا فهو كسائر الأطفال . يصرخ جوعانا فتلقمه أمه ثديها، ويبكى ضجرانا فتهدهده فى حجرها ، يغوط ويتبول فتغسله وتنظفه وتزيل عنه اتساخه ، وتعيد إليه هندامه وتكسوه .





« شباب طاهـر »

وأخذ عيسى يشب وينمو كبقية إخوانه البشر ولم يذكر الكتاب الكريم شيئا عن شبابه إلا أنه قد أوضح على لسانه فى مهده أنه محفوف بالعناية والكمال إلى أن يلقى ربَّ العزة والجلال .

﴿ والسَّلامُ عَلَيَّ يَومَ وُلِدَتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَومَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1] .

« إلى بنى إسرائيل »

منح الله - عيسى النبوة ، وعلمه الكتاب والحكمة ، وأرسله إلى بنى إسرائيل مرشدا إليه، وداعيا إلى توحيده وعبادته .

وقصر الدعوة عليهم دون سائر الناس وقد أعلن - عيسى هذا فى وضوح حيث قرر أن رسالته مقصورة على هؤلاء الناس ولا تمتد إلى غيرهم وفى هذا يقول عليه السلام : « **لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة** »[2] وبدأ فى إعلان دعوته ومهمته إليهم وحدهم . والسبب فى ذلك أن بنى إسرائيل قد طال عليهم الأمد

---

(1) مريم : ٢٧ .   (2) متى ١٥ - ٢٤ .

فقست قلوبهم وحرفوا شريعة الله التى جاءهم بها موسى – عليه السلام – وانحرفوا عن الطريق الواضح وخرجوا إلى الإفراط والتفريط . ومن تفريطهم :

تهالكهم على المادة واستغراق حب المال لتفكيرهم فكانوا يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليحتووا على ذلك المال فأراد المسيح بمجيئه أن يخفف من هذه الأنانية ، ولينذرهم عاقبة الفساد والإفساد ، والبعد عن طريق الخير والرشاد .

ويمكننا أن نلخص لك – أيها المسلم الكريم – المهام التى جاء من أجلها عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل فى هذه النقاط .

المهمة الأولى : توبيخ فقهاء بنى إسرائيل وإنذارهم بغضب الله من أجل نبذهم الدين ، وتحريفهم التوراة ، والتزامهم الدنيا حتى أسلخت الديانة من الروحية والفضائل ، وتلوثت بالمادية والشهوات والرذائل ، فهو – عليه السلام – يعلم أنهم حرفوا التوراة لأنه كان يحفظها ويحترمها ، ويقدسها ويوصى أتباعه بحفظها وتعلمها ، بل إنه كان من الهين عنده أن تزول السموات والأرض ، وكل مخلوقات الله فى الكون ولا يزول حرف من التوراة وها هو عليه السلام يعلن ذلك فى وضوح بقوله : « **زوال السموات والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس** »[1] .

المهمة الثانية : التى جاء من أجلها إليهم : إنذار بنى إسرائيل بأن الله سينزع عنهم النبوة والدولة ليعطيها غيرهم جزاء كفرهم ونبذهم لتعاليم التوراة . وقد جاء هذا الإنذار فى إنجيل متى قوله

---

(١) انجيل لوقا ص ١٦ : ١٧ .

عليه السلام لهم : « **لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه هو عليه يسحقه** »[1] .

المهمة الثالثة : إنكاره على الذين يدعونه إلها أو ابن إله .

المهمة الرابعة : التبشير بمجيء النبى محمد ﷺ بالشريعة السماوية التى كان يعبر عنها بملكوت السماء .

وبدأ عيسى عليه السلام فى تنفيذ ما جاء من أجله من مهمات عظيمات فدعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد ذلك أن التوحيد هو دين كافة الأنبياء ، وصراط كل الرسل ، فما من رسول إلا وكانت أولى كلماته ومفتتح رسالته إلى قومه : ﴿ **واعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** ﴾[2] .

بل إن الدعوة إلى توحيد الله تعالى هى لباب الدين وقاعدته ، وهى الهتاف الدائم لكل نبى ولك رسول : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنا من قَبْلِك من رَسُولٍ إلَّا نُوحِى إِلَيه أَنَّه لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فاعْبُدُون** ﴾[3] .

فالتوحيد هى دعوة نوح عليه السلام : ﴿ **لَقَد أَرْسلْنا نوحاً إلى قومِهِ فَقَال يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه** ﴾[4] .

والتوحيد هى صيحة إبراهيم عندما نادى قومه قائلا : ﴿ **اعْبُدُوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ** ﴾[5] .

---

(١) متى ص ٢١ : ٤٢ .
(٢) النساء : ٣٦ .
(٣) الأنبياء : ٢٥ .
(٤) الأعراف : ٥٩ .
(٥) الأعراف : ٥٩ .

والتوحيد هو هتاف هود عليه السلام : ﴿ وإلى عَادٍ أخاهُمْ هُوداً قالَ يَا قومِ اعبدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيرُه أفلا تَتقُونَ ... ﴾(١) .

وهو كذلك نداء صالح وصوت شعيب عليهما السلام : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهُمْ صالحِاً قالَ يا قومِ اعبدُوا اللهَ ما لكُمْ من إلهٍ غيرهُ ... ﴾(٢) .

﴿ وإلى مَدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾(٣) .

والتوحيد هو دين يعقوب وأبناؤه فقد سألهم عليه السلام عمن يعبدونه بعد موته فيجيبونه فى نقاء وصفاء ﴿ نَعبُد إلهكَ وإلهَ آبائِكَ إبْراهيمَ وإسْماعيلَ وإسْحٰقَ إلهاً واحِدًا ﴾(٤) .

والتوحيد كذلك عقيدة يوسف عليه السلام الذى يخاطب دعاة الشرك فى تهكم وتقريع قائلا : ﴿ أأَرْبابٌ مُتَفرِّقُونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحِدُ القَّهارُ ، ما تعبُدونَ مِنْ دُونِهِ إلا أسَماءً سَميتمُوهَا أنْتم وآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بهَا مِنْ سُلْطَانٍ إنَ الحُكْمُ إلَّا للهِ أمرَ ألَّا تعْبُدوا إلاَّ إيَانُ ذلِكَ الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ ﴾(٥) .

والتوحيد هو عماد دعوة موسى وهارون وكذلك إخوانهم سليمان وداود بل إنه صلب رسالة محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام ﴿ قلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيايَ ومَماتِي للهِ رَبِّ

---

(١) الأعراف : ٥٠ .
(٢) هود : ٦١ .
(٣) هود : ٨٤ .
(٤) البقرة : ١٣٣
(٥) يوسف : ٤٠ .

العالِمين ، لا شَرِيكَ لهُ وبذِلِكَ أُمِرْتُ وأَنا أَوَلُ المسْلِمين ﴾[1] .

ولابد أن يكون التوحيد هو رسالة عيسى عليه السلام ، وقد كان .. فقد أخبر الرحمٰن المنان ، أن عيسى قال لقومه : ﴿ إنَّ اللهَ ربِي وربكُمْ فاعبدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مستقيمٌ ﴾[2] .

وهل يستطيع عيسَى أن يشذ عن القاعدة ؟

وهل يرضى أن يقول غير ما قاله إخوانه من الأنبياء ؟

وهل تسمح له نفسه أن يقول غير ما أمر به رب الأرض والسماء ؟

لا .. ثم ألف لا ..

إن عيسى عليه السلام واحد من الرسل الكرام ، وفرد من أنبياء الرحمٰن الذين استأمنهم على رسالته وحملهم شريعته ، واختارهم لهداية الناس ، واصطفاهم للدعوة النيرة الصالحة .

فلا يمكن أن يخونوا الأمانة ، أو يهدموا الثقة !

ولا يعقل أن يدعوا الناس إلى تأليههم أو عبادتهم من دون الله !

وإذا كان هذا لا يمكن أن يحدث منهم فلا يصدق مطلقا أن يحدث من عيسى وهو واحد منهم « **الأنبياء أبناء علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد** »[3] كما قال رسول الإسلام .

وفى هذا يقول أصدق الصادقين القائلين : ﴿ ما كَانَ لبَشرٍ أنْ يؤتِيهُ اللهُ الكتَابَ والحكْمَ والنبوةَ ثمَّ يقولُ للناسِ كونُوا عِباداً

(١) الأنعام : ١٦٣ .
(٢) آل عمران : ٥١
(٣) رواه مسلم

لى من دُونِ اللهِ ولكِنْ كُونُوا ربَانيِّينَ بمَا كُنتُم تعلمونَ الكِتَابَ وبما كنتمْ تدرُسُونَ ﴾(١) .

بل إن الحق سبحانه يقول لحبيبه محمد ﷺ : ﴿ وسْئَلْ مَنْ أرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا أجَعلْنَا مِنْ دُونِ الرحمٰنِ آلهةً يُعبدُوَن ﴾(٢) .

ولا شك أن عيسى داخل فى قوله : « من أرسلنا » .

بل إنه عليه السلام أقرب الأنبياء إلى محمد عليهما السلام . وذلك لقرب العهد بينهما ولأنه لا رسول بينهما كذلك .

فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم »(٣) .

وهكذا .

بدأت دعوة المسيح هاتفة بالصيحة العظمى ، منادية بالكلمة الخالدة مطالبة بتوحيد الله وتقديسه ، وتنزيهه عن كل نقص يخل بمقام الربوبية .

وليس القرآن وحده الذاكر لقضية التوحيد التى دعا إليها عيسى عليه السلام بل إن الأناجيل المؤلفة الموجودة الآن أبقت لنا بين صفحاتها عبارات تدل على وحدانية الله سبحانه .

فقد حدث مرقص فى إنجيله أنه بينما كان السيد المسيح جالسا مع تلاميذه وحوارييه يشرح لهم تعاليم الله أتاه أحد الناس يسأله :

---

(١) آل عمران ٧٩ . (٢) الزخرف : ٤٥ (٣) رواه مسلم .

« أية وصية هى أول الكل . فأجاب يسوع : **إن أول كل الوصايا هى اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هى الوصية الأولى... »**

ويستحسن الرجل قول السيد المسيح ويتيقن بذلك من صدق نبوته فيرد عليه قائلا : **« جيدا يامعلم بالحق قلت لأنه الله واحد وليس آخر سواه ... »[1] ونفس الحادثة يوردها إنجيل متى ولوقا وفيها يقرر السيد المسيح أن أول كل الوصايا ، ولباب الدين وأساسه ، هى توحيد الله وحبه وعبادته ويورد يوحنا فى إنجيله مناجاة المسيح عليه السلام لربه الواحد وفى هذه المناجاة يبين للناس طريق الحق ، طريق الجنة ، طريق النعيم الخالد يقول عليه السلام : « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك ، أنت الإله الحقيقى وحدك »** .

نعم لقد صدق المسيح عليه السلام عندما قرر أن طريق الجنة هو أن يعرف العبد ربه وأن يقر له بالوحدانية .

أما طريق جهنم فهو الشرك والضلال .

والقرآن العظيم يورد لنا هذه المعانى السامية الجميلة على لسان السيد المسيح فيقول : **﴿ وقالَ المِسيحُ يابنِى إسرائيلَ اعبدُوا اللهَ ربِّى وربَّكُمْ إنهُ من يشْرِكْ باللهِ فقدْ حرَّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ ومأواهُ النارُ وما للظالِمِينَ مِنْ أنصارٍ ﴾**[2] .

---

(١) انظر اظهار الحق ، وانجيل مرقص .
(٢) المائدة : ٧٢ .

ويأتى إنجيل متى ليذكر لنا محاولة إبليس اللعين إغواء المسيح الإنسان محرضا إياه على الشرك بالله عارضا عليه ممالك الأرض ، وخزائن الدنيا ولكن المسيح الرسول العظيم ينتصر على الشيطان اللعين وعلى تجربته وينهره قائلا : « **اذهب عنى ياشيطان لأنه مكتوب . للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد** »(١) .

هذه هى رسالة المسيح الحقيقية ، وحدانية الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه .

هذه هى رسالة المسيح التى أعلنها كل الأنبياء توصيلا لمنهج الله إلى عباده .

هذه هى أول دعوة دعا إليها المسيح أهله وأتباعه فهل اتبعوه ونصروه ؟

أم أنهم وقفوا فى وجه دعوته ؟

والحقيقة الناصعة توضح لنا – أنه ما من رسول أتى من قبل الحق سبحانه إلا وكانَ له أنصار يؤمنون به ، ويتبعون هديه ، وأعداء يحاربونه بكل ما استطاعوا من قوة ، ويصدون عن سبيل الله بكل ما يقدرون عليه من حول وطول . ﴿ **وكَذَلِكَ جَعَلْنا لكُلِّ نبى عَدُواً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحِي بعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زخرُفَ القولِ غُرورًا** ﴾(٢) .

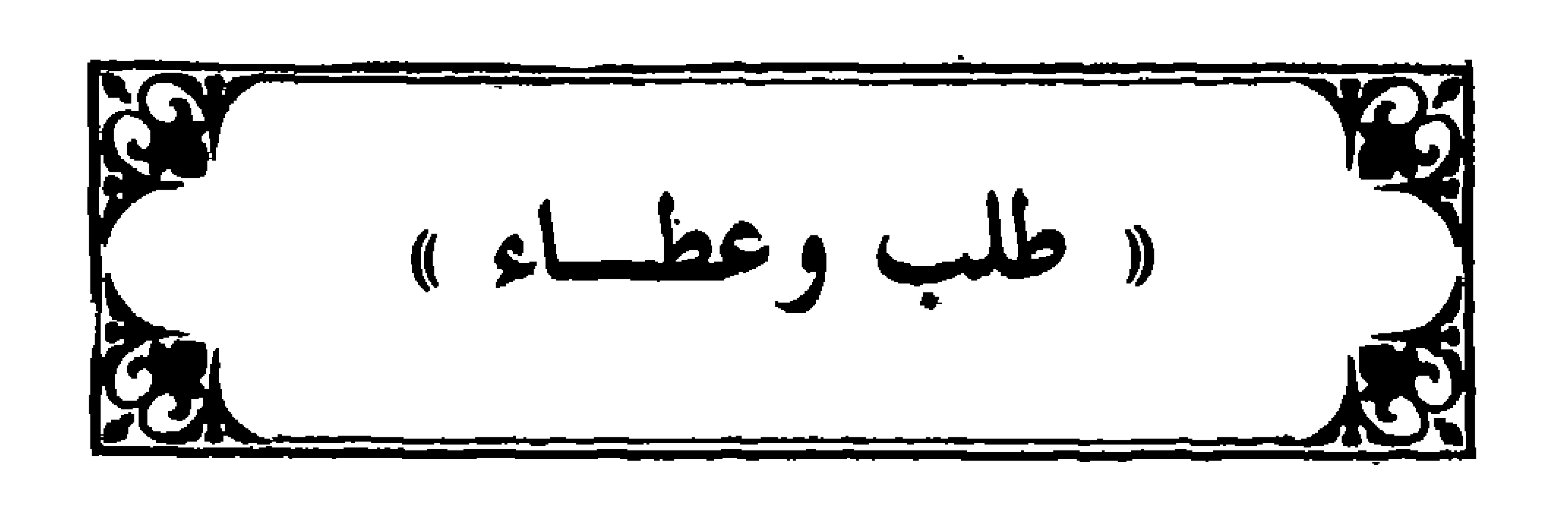
وهكذا كان عيسى عليه السلام .

آمن به جمع قليل من الضعفاء والفقراء ، وأصبحوا يناصرون دعوته ويساعدونه فى توصيلها إلى القوم وهم **الحواريون** .

---

(١) انظر انجيل متى .

(٢) الأنعام : ١١٢ .



« طلب وعطـــاء »

وبدأ الجميع يطلبون من المسيح بعضا من الخوارق التى تدل على صحة دعواه وعلى صدق ما يدعى تبليغه عن الله .

وبدأ الحق سبحانه يُظهر على يد عبده عيسى ما يطلبه القوم من معجزات وما يريدونه من آيات واضحات بينات .

وها هو القرآن العظيم يذكر لنا بعضا من هذه المعجزات التى أيد الله بها عيسى عليه السلام . ومنها إحياء الموتى بإذن الله ، وشفاء المرضى وإخبار القوم بما يأكلونه وما يدخرونه فى بيوتهم .

وتعال بنا لنرى البلاغة القرآنية وهى تحكى لنا منن الله على عبده عيسى عليه السلام يقول سبحانه : ﴿ **ورَسُولًا إلىَ بَنِى إسْرَائِيلَ أنِى قدْ جُئتكُمْ بآيةٍ من رٍّبكُمْ أنِّى أخلقُ لكمْ مِنَ الطينِ كهيئَةِ الطيرِ فأنفُخ فيِه فيكُونُ طيراً بإذنِ الله و أبرئُ الأكمه والأبْرَصَ وأُحِى الموتَى بإذنِ الله وأنبئكُمْ بَما تأكُلونَ ومَا تدَّخِرُونَ فى بُيوُتِكُمْ إنَّ فى ذِلَك لآيةً لكُمْ إنْ كُنتُم مؤْمِنَين** ﴾(١) .

تلك هى بعض المنن التى أنعم الله بها على عبده عيسى عليه السلام وهذه هى بعض المعجزات التى كانت دليل المسيح الأول

(١) آل عمران : ٤٩ ، ٥١ .

على صحة دعوته وبرهانه الأساسى على صدق رسالته بل إنها كانت الركيزة الأولى التى قامت عليها مهمته .

وفى هذا يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى :

« أول أصل قامت عليه المسيحية وعمادها هى خوارق العادات فإذا قرأت الأناجيل المعتمدة فلا تجد للمسيح دليلا على صدق دعواه إلا ما كان يضع من خوارق العادات التى تطيل الأناجيل فى شرحها وتزيد فى عددها ، فخوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات » اهـ

ولقد كانت هذه المعجزات التى أوتيها المسيح لتأييد دعواه ، ولحمل الناس على تصديقه بابا نفدت منه دعاوى فاسدة ، منها القول بتأليه عيسى فما دام يشفى الأمراض ، ويرد البصر ، ويحى الموتى فلاشك أنه إله أو ابن إله نزل من السماء إلى الأرض يعرض على الناس ممكنات الآلهه وقدراتها على البشر .

وتناسى هؤلاء تلكم التساؤلات ..

هل كان المسيح يعزو هذه المعجزات إلى نفسه أم إلى غيره ؟

هل كان ينسب فضل الآيات إلى ذاته زاعما أنه صاحبها ؟

أم أنه كان عبدا رسولا جاء لإظهار هذه المعجزات ؟

والحقيقة أنه – عليه السلام –

لم ينسب هذه الخوارق إلى شخصه ، ولكنه ردها إلى صاحبها .

إلى الله مرسله وخالقه .

إلى أصبع[١] الله .

إلى روح الله وقدرته وقوته .

فليس لعيسى من الأمر شيء ولكن الأمر كله لله .

هذه الحقيقة الكاملة .

وهذا التسليم — الواضح — بالعجز أمام قدرة الله يعلنه عيسى فى صدق قائلا : « **أنا لا أقدر على أن أفعل من نفسى شيئا** »[٢].

وهذه هى الأناجيل تثبت لنا تسليم عيسى بالعجز وإعادته صنع الخوارق إلى صانعها ومانحها .

فقد حدث « متى » عن مفلوج أتوا به إلى عيسى محمولا على فراشه لا يستطيع السير أو الحركة « حينئذ قال للمفلوج : قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك فقام ومضى إلى بيته فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذى أعطى الناس سلطانا مثل هذا ..

وبينما عيسى يسير فى الطريق مع حوارييه إذ رأى إنسانا أعمى منذ ولادته وسأل الحواريون معلمهم لماذا ولد هذا أعمى ؟ هل لخطأ ارتكبه هو أم لذنب جناه أبواه ؟ أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه ولكن لتظهر أعمال الرب فيه ... ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى .

إذن فالأعمال أعمال الله ، والمعجزات من عند الله ، وليس أمام

---

(١) الأصبع ينسب إلى الله كما جاء فى الحديث إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

(١) يوحنا : ١ — ٤٤ .

عيسى إلا أن ينفذ ما رسمه الله له ، وأن ينجز ما كلفه الله به .

فليس هو إلا شخصية مصطفاه سخرها الحق لتحقيق ما أراده وبعد ذلك ينسب الفضل إلى صاحب الفضل وما أجمل تعبير القرآن الكريم عندما ينسب الفضل إلى الله عند ذكر النعم .

استمع – أيها القارىء الكريم – إلى هذه الكلمات النورانية العذبة .

﴿ إذْ قَال اللهُ ياعيسَى بن مَرْيَم اذْكُرْ نعمِتى علْيكَ وعَلى والدتِكَ إذْ أيدتُكَ بروحِ القُدُسِ تكلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئَةِ الطيْرِ بإذنى فتنفخُ فيَها فتكون طيراً بإذِنى وتبرىُءَ الأكْمَهَ والأبْرصَ بإذِنى وإذ تخرجُ الموتى بإذِنى وإذ كففتُ بنى إسرائيل عنكَ إذ جِئْتَهُم بالبيناتِ فقالَ الذين كفرُوا منهُمْ إنْ هذَا إلا سِحْرٌ مُبينٌ ﴾(١) .

ما أجمل تكرار هذه اللفظة « **بإذنى .. بإذنى ... بإذنى** »

إنه جمال نسبة الشيء إلى فاعله وصانعه .

ولكن ؟ ..

هل آمن الناس بهذه المعجزات ؟

وهل صدقوا بصاحب هذه الآيات الواضحات ؟

لقد طلبوا المزيد من المعجزات فزادهم الله ، فمنهم من يطلب المزيد لتطمئن نفوسهم ، والكثير يطلب الزيادة عنادًا واستكباراً .

---

(١) المائدة : ١١٠ .

﴿ إذ قالَ الحوارِيُّونَ ياعيسَى بنَ مَرْيَمَ هلْ يَستَطِيعُ رَبُّكَ أنْ يُنَزِّلَ علَينَا مائِدَةً من السَّمَاءِ ؟ قالَ اتقُوا اللهَ إنْ كُنتم مؤْمِنِينَ قالوا : نُرِيدُ أن نَأكُلَ مِنهَا وتَطمَئِنَ قلوبُنَا ونعلَم أنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنكُونَ عَليهَا مِنَ الشَّاهِدينَ . قال عيسَى بن مريَم اللهمَّ ربنَا أنزلْ علينَا مائِدةً من السَّماءِ تَكونُ لنَا عِيدًا لأولنَا وآخِرنَا وآيةً منكَ وارزُقْنَا وأنتَ خيرُ الرَّازِقِينَ قالَ اللهُ إنِّى مُنزِّلهَا عليكُمْ فمَنْ يكفُرْ بعد مِنكُم فإنِّى أعذِّبُهُ عذاباً لا أعذِبهُ أحدًا من العالِمينَ ﴾(١) يقول صاحب « ظلال القرآن » فى تفسير هذه الآية . يكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا – ﷺ – فرق بعيد إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبعيسى فآمنوا . وأشهدوا عيسى على إسلامهم ومع هذا فهم بعد ما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم ويعلمون منها أنه صدقهم ويشهدون بها له لمن وراءهم .

فأما أصحاب محمد – ﷺ – فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان . ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد

---

(١) يرى بعض التابعين – أن المائدة لم تنزل لأن الحواريين عندما سمعوا قول الله سبحانه : **﴿ إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾** خافوا وكفوا عن طلب نزولها وهو قول مجاهد والحسن ، وقال ابن كثير فى تفسيره – عن مجاهد قال : « هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء ، ولكن أكثر أهل السلف يرون أنها نزلت لأن الله قال : **﴿ إنى منزلها عليكم ﴾** ووعد الله حق لا يتخلف . وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذى نعتمده فى أمرها دون سواه . المائدة : ١١٢ – ١١٥ .

ذلك البرهان ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن .

هذا هو الفارق الكبير بين حوارى عيسى وأصحاب محمد . وذلك مستوى وهذا مستوى .. وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله » ا هـ

اطمأن الحواريون إلى معجزات نبيهم ، وكفر الآخرون بعيسى وبمعجزاته وبصانع المعجزات سبحانه واستشعر عيسى منهم التصميم على الكفر ، والثبات على الضلال فأبان لهم أنهم إن استمروا على ذلك ستنزع منهم النبوة وبشرهم بقدوم رسول آخر الزمان الذى هو من ولد إسماعيل عليه السلام وجاءت هذه البشارة فى القرآن والإنجيل والتوراة على لسان موسى وأخيه عيسى عليهما السلام .

أما القرآن فقد بشر به على لسان المسيح فى قوله : ﴿ **وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾[1] .

وأما الإنجيل فقد بشر به ﷺ بوضوح وصفاء فقد كان المسيح يعبر عن المبشَر به بلفظ النبى وبلفظ « مسببا » وبلفظ « فار قليط » ومعناها الذى له حمد كثير وكان يعبر عن الشريعة الآتية بلفظ ملكوت السموات أى الشريعة الإلهية الدائمة بمجىء محمد ﷺ[2] .

بل إن التوراة بشرت به عليه صلوات الله وسلامه ففى سفر التكوين وعد الله فى حق إسماعيل بن إبراهيم بقوله : « وعلى إسماعيل

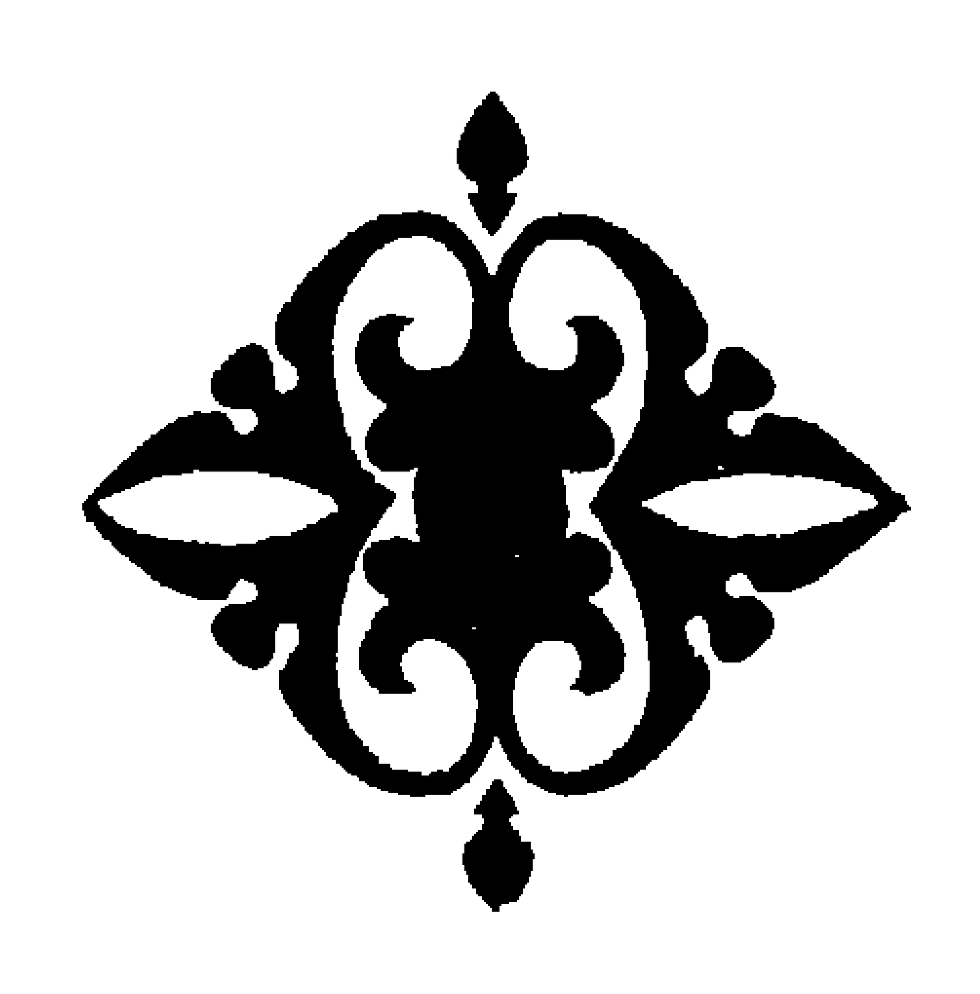
---

(١) سورة الصف : ٦ .

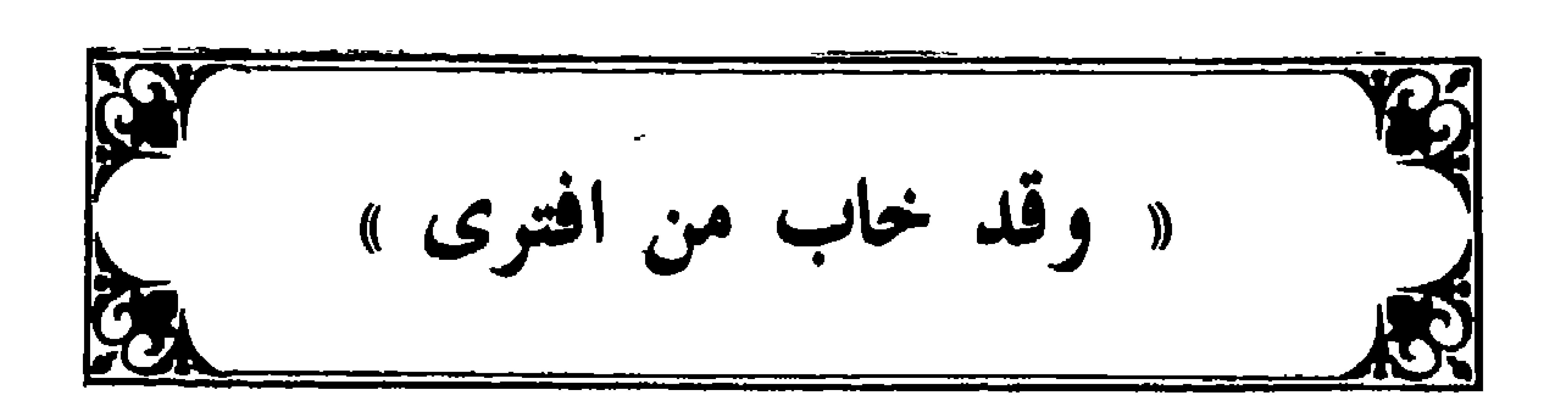
(٢) انظر بشارة الإنجيل بمحمد رسول الإسلام .

استجبت لك ، هو ذا أباركه وأكثره جدًا فسيلد إثنى عشر رئيسا وأجعله لشعب كبير »[1] .

وفى قوله أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ﷺ لأنه لم يكن فى أولاد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره . وما أكثر الأدلة من التوراة والإنجيل بالبشارة بمحمد رسول الله .



(١) انظر المرجع السابق .



« وقد خاب من افترى »

والعجب العجاب أنهم استمروا على كفرهم وعنادهم ، ووجد عيسى أنهم يخططون لنسفه ، ويجهدون أنفسهم لقتله فلما أحس ذلك منهم اتجه إليهم مناديا : من يناصرني في هذا الحق الذي أدعو إليه ، فقال جماعة من الأصفياء نحن نؤيدك وننصرك ، واشهدْ بأنا مخلصون لك ، ولربك منقادون لأوامره ، منفذون لتعاليمه ، شاهدون له بالوحدانية ولك بالبشرية .

ويعبر الذكر الحكيم عن هذا المعنى بهذا الحوار الجميل :

﴿ فَلمَّا أَحَسَّ عيسَى منهمُ الكُفْرَ قالَ منْ أنْصَارِى إلى اللهِ قالَ الحواريُّونَ نحنُ أنصارُ اللهُ آمنَّا باللهِ واشْهَدْ بأنا مُسلِمُونَ . ربَنَا آمنَّا بمَا أنْزلْتَ واتبعنَا الرسُولَ فاكْتُبْنَاَ معَ الشَّاهِديَن ﴾[1] .

أمَّا المعاندون الجاحدون .

أما الملحدون الكافرون الآثمون .

فقد دبروا تدبيرا خفيا يحاربون به رسول الله عيسى .

إنهم يدبرون للتخلص منه بطريقة ماكرة .

---

(١) آل عمران : ٥٢ - ٥٣ .

إنهم يريدون قتله . ويْحَكُمْ قتلة الأنبيا ﴿ أَتَقْتُلونَ رجُلاً أنْ يقُولَ ربِّيَ اللهُ ﴾[1] .

فكم قتلوا من أنبياء !

وكم سفكوا من دماء !

وكم انتهكوا حرمات الآمنين الأبرياء !

لقد نجا الله عيسى من شرهم ، فألقى شَبَهَهُ على واحد من أكبر فساقهم وملحديهم ورفع عبده عيسى إلى السماء وطهره من نجاسة أيديهم ولؤم طبيعتهم .

﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ واللهُ خيْرُ الماكِرين إذْ قَالَ اللهُ ياعِيسَى إنِّ مُتَوفِّيك ورافِعُكَ إليَّ ومُطَهِّرك مِنَ الذِينَ كَفرُوا وجَاعِل الذين اتبعوكَ فوقَ الذينَ كفرُوا إلى يوْم القيامةِ ﴾[2] .

ولم يرض الله لعبده عيسى أن يذبح بأيدى حثالة الشعوب فأكرمه برفعه[3] إليه ورد على الكذب التاريخى القائل بقتله وصلبه فى قوله تعالى : ﴿ وبكُفْرِهِمْ وقولِهِمْ على مَرْيَم بُهتاناً عَظِيماً وقولِهِمْ إنَّا قتلنَا المسيحَ عِيسَى بن مريَم رسُولَ الله و ما قتلوه ومَا صلبُوهُ ولكن شُبِّه لهُم وإنَّ الذين اختَلفُوا فيهِ لفي شَكٍّ منْهُ ما لهُمْ بِه مِنْ

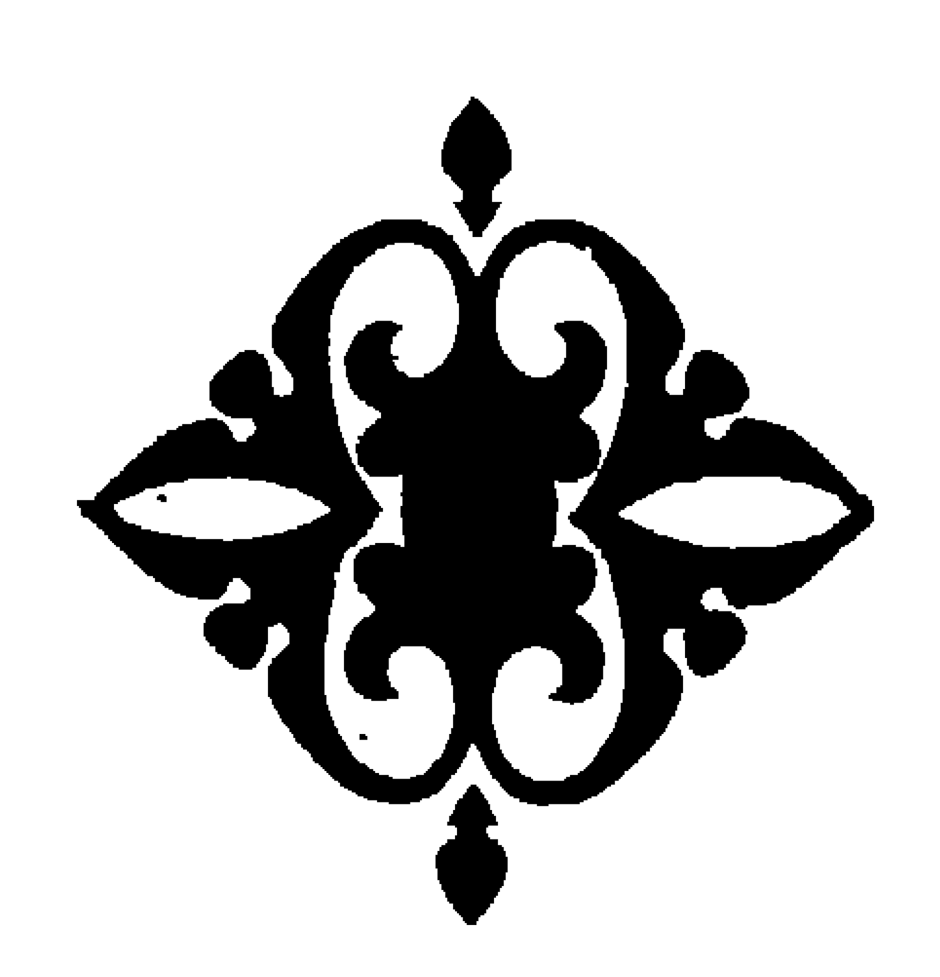
(١) سورة غافر : ٢٨ .

(٢) آل عمران : ٥٤ ، ٥٥ .

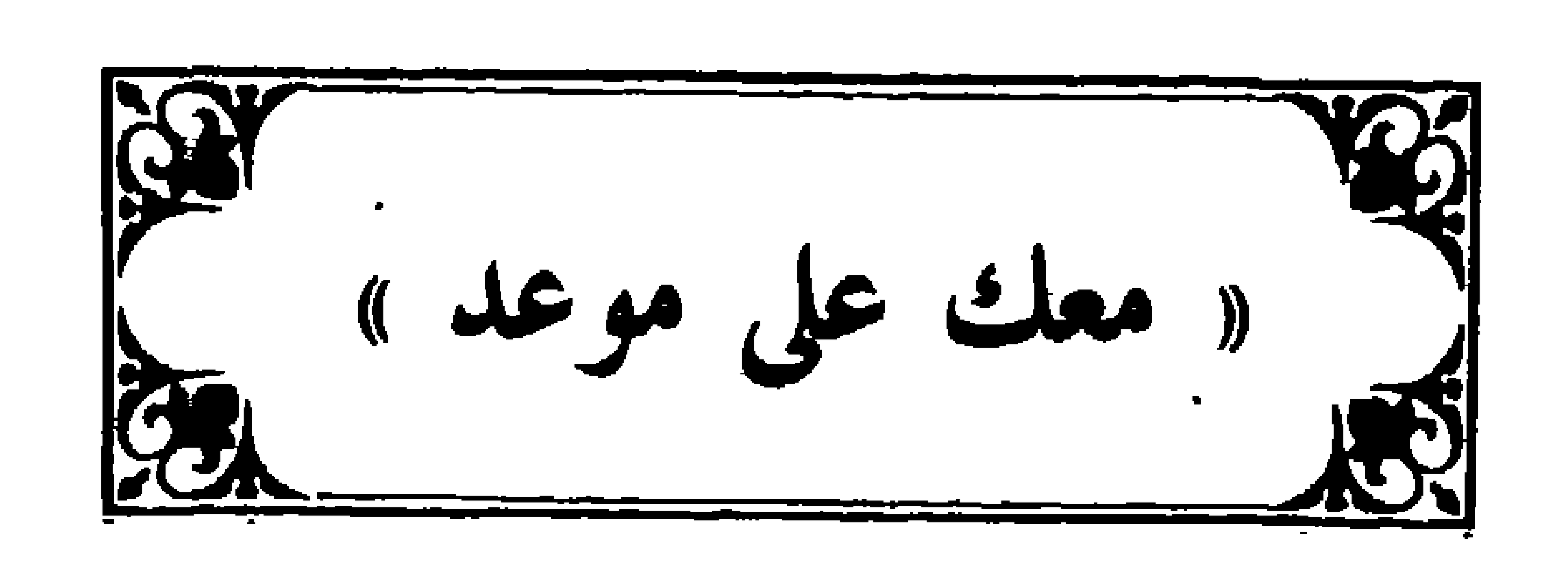
(٣) اختلف المفسرون فى رفع عيسى إلى السماء فقال بعضهم إن المقصود بالرفع هو رفع الكرامة والمكانة وقال آخرون إن الله رفعه حقيقة إلى السماء وسوف يتوفاه بعد إنزاله إياه إلى الدنيا ، ثم قالوا إن الله رفعه إلى السماء من غير نوم ولا وفاة وهذا قول الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبرى والصحيح عن ابن عباس كذلك .

عِلْمٍ إلا اتبَاعَ الظَّنِ ومَا قتلُوه يَقينًا بل رَفَعَهُ اللهُ إليْهِ وكانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

فسبحان ناصر الحق . وزاهق الباطل – إنه على كل شيء قدير .



(١) النساء : ١٥٦ – ١٥٨ .



فعيسى عندنا – نحن المسلمين – لم يقتل ولم يصلب ، ولم يفد البشرية بدمه ، وإنما هو ناج مما قيل فيه ، ومبرأ من كل ما اتهم به .

ونحن معه على موعد .

بل إننا ننتظره ليقول الحقيقة ، وليعلن الصواب .

فقد أبلغنا رسولنا صلوات الله عليه وسلامه أنه سينزل ليقول للناس إنه عبد فاضل من عباد الرحمٰن .

سينزل ليحطم الآلهة المزيفة من صور وتماثيل وصلبان ، وليعلن على الملأ أنه لا إله إلا الواحد الديان .

سينزل ليقول لأعدائه إنكم اشتريتم الضلالة بالهدى بتحريفكم الكلم عن مواضعه سينزل ليعلن للعالم كله أنه أخ لمحمد خاتم الأنبياء وأنه سيد الأصفياء سينزل ليعلن للملأ أجمع أنه طاهر ابن طاهرة عفيف من امرأة عفيفة وأراك – أخا الإسلام – على شوق لاستماع أحاديث المصطفى عليه السلام وهو يتحدث عن أخيه عيسى المسيح ابن مريم .

وهأنذا أسرد لك – أيها القارىء الكريم – أحاديث المصطفى العظيم ﷺ فعن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة

رضى الله عنه قال قال رسول الله : « **والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها** » .

ثم يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم ﴿**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ به قَبْلَ مَوْتِه ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**﴾[1] .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإما مكم منكم** »[2] .

وعن النبى صلوات الله عليه وسلامه قال : « **لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم أو برابق[3] فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بينا وبين الذين سبوُا منا نقاتلهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا فيقاتلوهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا فيفتحون قسطنطينية[4] فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذْ أقيمت الصلاة فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب**

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه باب نزول عيسى بن مريم والآية من سورة النساء (١٥٩) .

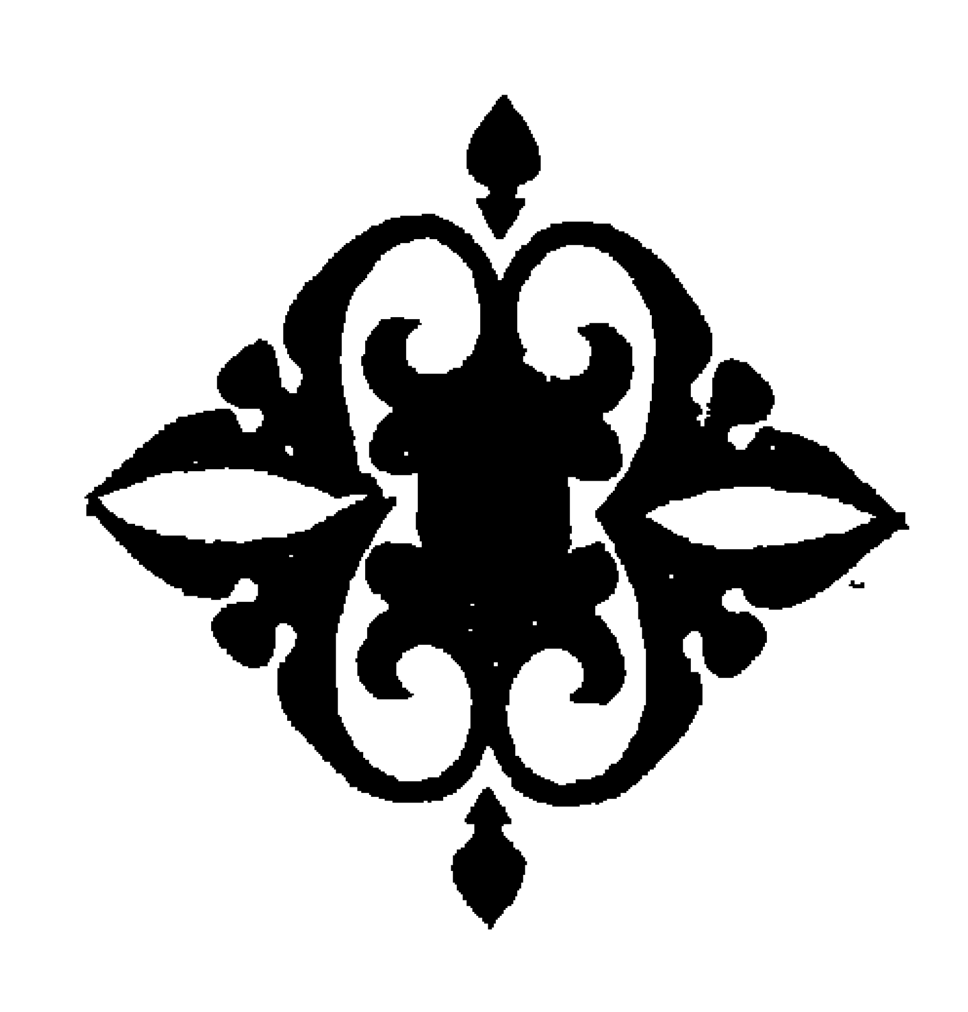
(٢) رواه البخارى فى صحيحه باب نزول عيسى بن مريم .

(٣) رابق — اسم موضع وهو بالشام .

(٤) قسطنطينه : من أعظم بلاد الروم وهى رومانيا .

الملح فى الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته »[1] .

وما أكثر أحاديث المصطفى ﷺ فى هذا الشأن .



(١) رواه مسلم فى صحيحه جـ١٨ ص ٢٢ كتاب الفتن وأشراط الساعة .

« عبد من عباد الرحمٰن »

وأعتقد أن أهم ما يجب أن يقال فى عيسى عليه السلام هو أن يُبَرأ من الألوهية التى اتهم بها ظلما وزوراً ، ومن الربوبية التى نسبت إليه كذبا واحتيالا على التاريخ .

إن أصدق ما يستدل به على عبودية عيسى بن مريم لرب العالمين هو القرآن الكريم فلابد أن يذكر المسيح لأعدائه ما ذكره الكتاب الخالد فى حقه بكل نقاء وها هى آيات القرآن توضح فى أسمىٰ بيان عبودية عيسى لربه يقول سبحانه : ﴿ **لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أنْ يكُونَ عَبْدًا لله ولَا الملائكةُ المقربُونَ ومنْ يسْتَنكِف عنْ عِبادَتِهِ وَيسْتَكْبِرْ فَسيحشُرُهُمْ إليْهِ جَمِيعاً** ﴾[1] .

ويقول جل اسمه : ﴿ **إنْ هُو إلَّا عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيْهِ وجَعَلْنَاهُ مَثلاً لبنِي إسْرَائِيلَ** ﴾[2] .

ويوضح سبحانه : ﴿ **ذَلِكَ عِيسَى بنُ مريمَ قولَ الحِقّ الذى فيهِ يمْتَرونَ ما كانَ لله أن يتَّخِذَ منْ ولِدٍ سبحانَهُ إذَا قضَى أمراً**

---

(١) النساء : ١٧٢ (٢) الزخرف : ٥٩ .

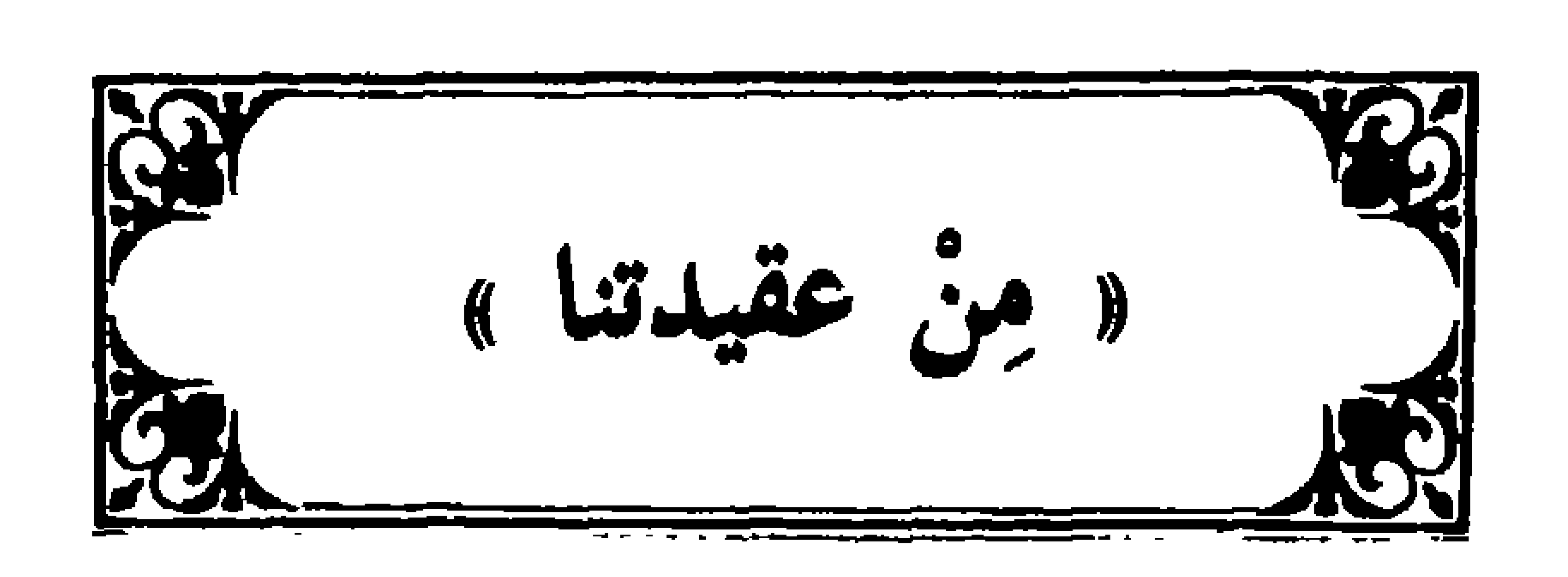
فإنَّما يقُولُ لهُ كُنْ فَيَكُونُ وإنَّ الله ربِي وربكُمْ فاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مسْتقِيمٌ ﴾(١) .

ويدلل سبحانه على عبوديته له بدليل ناصع البياض فى قوله : ﴿ ما المسيحُ بنُ مريَم إلا رسولٌ قد خلتْ مِنْ قبْلِهِ الرسلُ وأمُه صدِّيقةٌ كانَا يأكُلَانِ الطعامَ انظُرْ كيفَ نبيِّن لهُمْ الآياتِ ثم انظُرْ أنىَّ يُؤْفكُونَ ﴾(٢) .

وسوف يقف عليه السلام – يوم القيامة ضد كل من مات معتقدا فيه الألوهية أو متهما له بهذا الاتهام الشنيع – متبرئا من كل ما نسبوه إليه تحقيقا لقول الله سبحانه : ﴿ وإذْ قالَ اللهُ ياعِيسَى بنَ مريمَ أأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتخِذوُني وأمىَ إلهيْن منْ دونِ اللهُ قالَ سبحانَكَ ما يكونُ لى أنْ أقولَ ما ليْسَ لي بحقٍ إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقدْ عَلِمْتَهُ تعلمُ ما فى نفْسى ولا أعلمُ ما فى نفِسكَ إنكَ أنتَ عَلَّامُ الغُيوبِ ما قلتُ لَهُمْ إلَّا ما أمرْتنى بِهِ أن اعْبُدوا الله ربى وربكمْ وكنتُ عليهمْ شهيدًا ما دمتُ فيهِم فلمَّا توفَّيْتنِى كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهمْ وأنتَ على كل شيءٍ شهيد إنْ تعذبهمْ فإنهُمْ عبادُكَ وإن تغفرْ لهمْ فإنكَ أنت العزِيزُ الحكيُم ﴾(٣) .

---

(١) مريم : ٣٤ – ٣٦ .   (٢) المائدة : ٧٥ .
(٣) المائدة : ١١٦ ، ١١٨ .



ونهاية لتعلمَ أيها القارىء الكريم – علم اليقين .

أن عيسى عليه السلام جزء من إيماننا – نحن المسلمين – وأصل من عقيدتنا نحن المؤمنين .

نؤمن به عبدًا من عباد الرحمٰن .

ومعجزة من معجزت الإله القدير المنـــان .

معجزة فى ولادته من غير أب .

معجزة فى مهده وإلهام الله له بالنطق والبيان .

معجزة فى طهارة أصله وبراءة أمه .

معجزة فى نجاته من أيدى السفلة القتلة .

معجزة فى جعله آية للناس من لدن الكبير المتعال .

فهو حبيب قلوبنا .

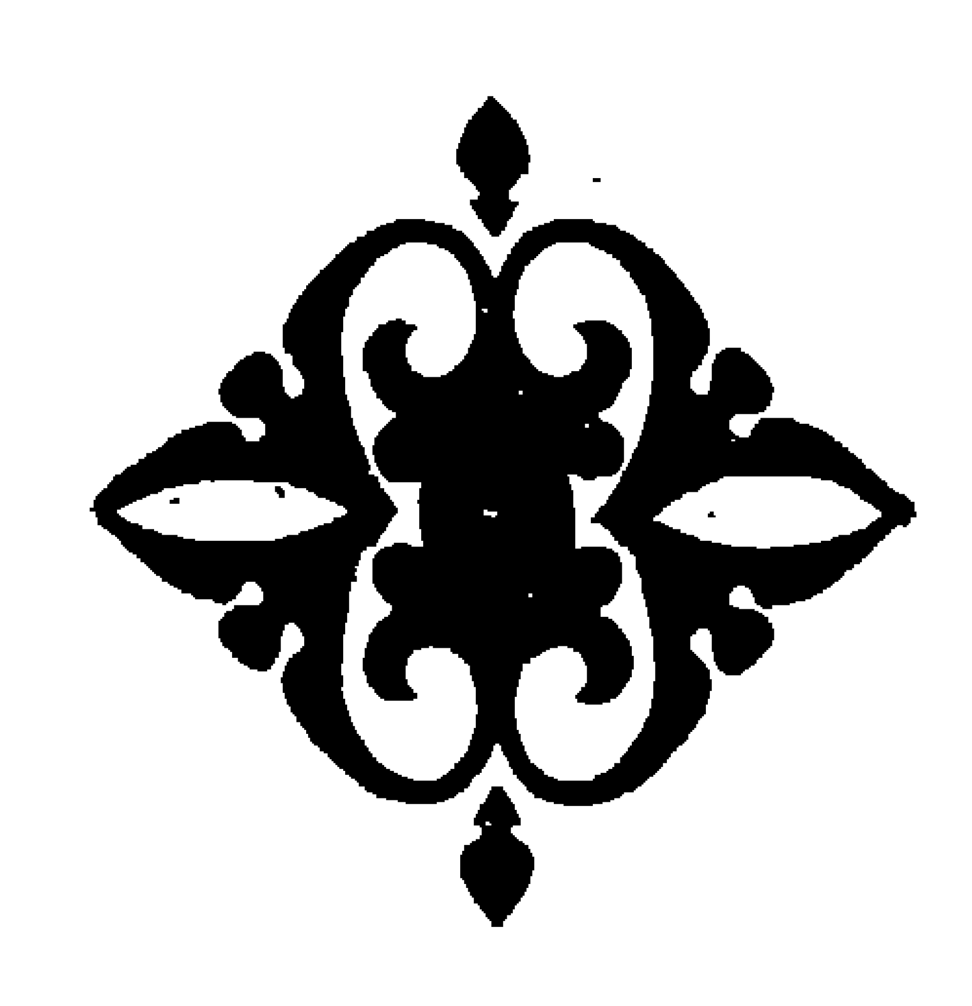
وهو قريب لنبينـــا .

وهو جزء من عقيدتنا وإيماننا .

وهو ابن الطاهرة بشهادة قرآننا .

فرحمة الله وبركاته على عيسى ابن الإنسان أول ثلاثة تكلموا في المهد .

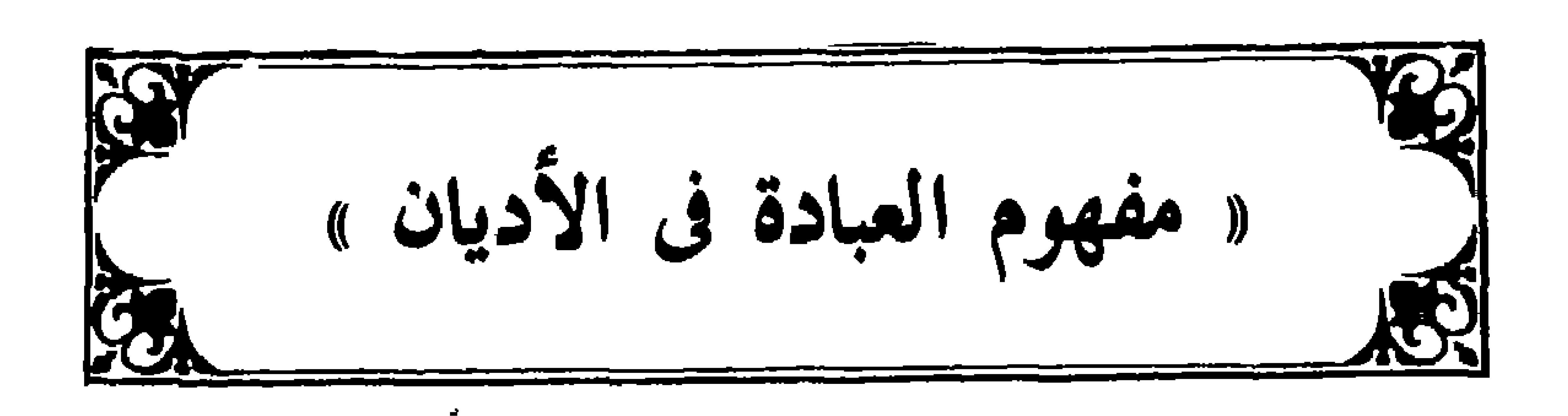
وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيـــا » .



الفصل الثانى

ثانى اثنين تكلموا فى المهد

- مفهوم العبادة فى الأديان .
- عابد فى محرابــه .
- نداء ومفاضلـة .
- دعــوة أم .
- أخلاقيــات منحرفـة .
- اتهــام .
- حكــم وبراءة .
- كرامات من الله .
- أدعيــاء .



« مفهوم العبادة فى الأديان »

ما أجمل الحياة عندما يجملها الإنسان بعبادة الرحمٰن .

وما أحسن العبادة حينما يجعلها العبد خالصة للمعبود الديان .

فلقد نوهت الأديان بالعبادة تنويها لا يحتاج إلى دليل بل إنها جعلتها الهدف من الحياة ، وباركت الإنسان عندما يفتخر بعبوديته لله .

وأراك تسألنى – أيها المسلم الكريم – عن معنى العبادة ومفهومها وأهدافها حتى تزين حياتك بها فلا يكون فيها هم ولا ضنك .

والحقيقة أنه لا سعادة للإنسان فى دنياه وآخرته إلا بعبادة ربه سبحانه فما العبادة إذن ؟

يقول الراغب الأصفهانى – العبادة هى الخضوع والتذلل .

ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله سبحانه وتعالى .

وهى ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود .

وهى عند الإمام ابن تيمية « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر وقراءة القرآن وأمثال ذلك من العبادة » .

« وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هى من العبادة لله تعالى » اهـ

ويمكننا أن نزيد على كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

وكذلك قضاء حوائج الناس ، والصبر على أذاهم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وعدم طاعة المخلوق فى معصية الخالق ، والبعد عن أكل أموال اليتامى ظلما ، وأكل لحوم الناس بالباطل بالغيبة والنميمة وأمثال ذلك من العبادة .

وهكذا نجد أن للعبادة ولمعناها أفقاً رحبة ودائرة واسعة فليس بعابد لله من قال : أصلى وأصوم وأحج ولكنى حر فى أكل لحم الخنزير ، أو شرب الخمر ، أو أكل الربا .

وليس بعابد لله من أدى الشعائر ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده كالرجل الذى يلبس الحرير الخالص ويتحلى بالذهب ويتشبه بالنساء وليس بعابد لله من زكى وأنفق فى سبيل الله من مال اكتسبه

من غير حله كرشوة أو سرقة أو ضحك على عباد الله تعالى بابتذاذ أموالهم ولكن العابد هو الشخص الذى أدى العبادة على وجهها الصحيح فخاف ربه ، وخشي ذنبه ، وشغف قلبه بحب خالقه ومولاه .

فإذا أعطى فمن أجل الله .

وإذا منع فمنعه من أجل مولاه .

وإذا أحب أوكره أو رضى أو غضب كان ذلك كله لله .

ولابد أن يكون العابد مخلصا فى عبادته لربه ، متقنا لها ، متجرداً عن جميع الشوائب والعلائق والأغراض .

فلا عبادة بلا إخلاص ، ولا عمل بغير نية وقصد .

ولذا نجد الكتاب الكريم يطالب العبد بالإخلاص فى عبادته فى كل شيء .

ولكى يتضح لك – أيها المسلم – صدق ما قلناه ، ودليل ما سطرناه .

فعال بنا لنقرأ سويا هذه الآيات المباركات والآثار الواضحات .

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبِدِ اللهَ مَخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾(١) .

ويقول جل ذكره : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾(٢) .

---

(١) الزمر (٢) . (٢) البينة (٥) .

ويقول تبارك اسمه : ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾[1] .

ويقول عز وجل : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[3] .

ويقول الرسول الكريم ﷺ : « يقول الله عز وجل مَنْ عَمِلَ لِيَ عَمَلًا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك »[4] .

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن العزيز رضى الله عنه يقول : **« اعلم أن عون الله للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره »** . وتحدث الإمام الغزالى عن حكم العبادة المشوبة بالرياء فقال : « اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس فى أن ذلك هل يقتضى ثوابا ، أم يقتضى عقابا ، أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه ، ويجيب الغزالى عن هذه التساؤلات بقوله أما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب .

---

(١) الأعراف (٢٩) .

(٢) الكهف (١١٠) (٣) النساء (١٤٦) .

(٤) رواه مسلم وابن ماجه بلفظ آخر. ونصه أنا أغنى الشركاء فمن عمل لى عملها أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك .

وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب .

وأما المشوب فظاهر الأخبار يدل على أنه لا ثواب له » اهـ

وخلاصة القول :

أنه لابد للعابد أن يجعل عبادته خالصة لوجه ربه سبحانه ، وأن الله لا يقبل من العمل إلا الخالص النقى .

وصور العبادة كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور للسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها ولكل عبادة من العبادات الصحيحة الخالصة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا .

ومن هنا أجمع العلماء على أنه إذا ازداد العبد فى عبادة ربه زاده الله قربا ومحبة ، ما دامت العبادة خالصة لوجه الله مستندين فى ذلك إلى صريح الآيات البينات ، والأحاديث الواضحات ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُم هُدًى وآتَاهُمْ تَقْوَاهم ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَالذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُم فِي الصَّالِحِينَ ﴾[2] .

وقوله فى الحديث القدسى : « مَا يزال عبدى يتقرب إلى

---

(١) محمد : آية ١٧ .

(٢) العنكبوت : آية ٩ .

بالنوافل حتى أحبه فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به وقلبه الذى يعقل به فإذا دعانى أجبته وإذا سألنى أعطيته وإذا استنصرنى نصرته ... »[1] الحديث

ومتى أكثر العبد من فعل الطاعات والبعد عن المخالفات أوجب ذلك له حب الله فيصير الشخص لا يرى إلا الله ، ولا ينطق إلا بالله أى أنه متى اجتهد فى الفرائض والنوافل امتلأ قلبه بمعرفة الله وإجلاله والأنس به .

ومتى وصل العبد إلى هذه المرتبة صار جديرا بأن يكون وليا من أولياء الله تعالى .

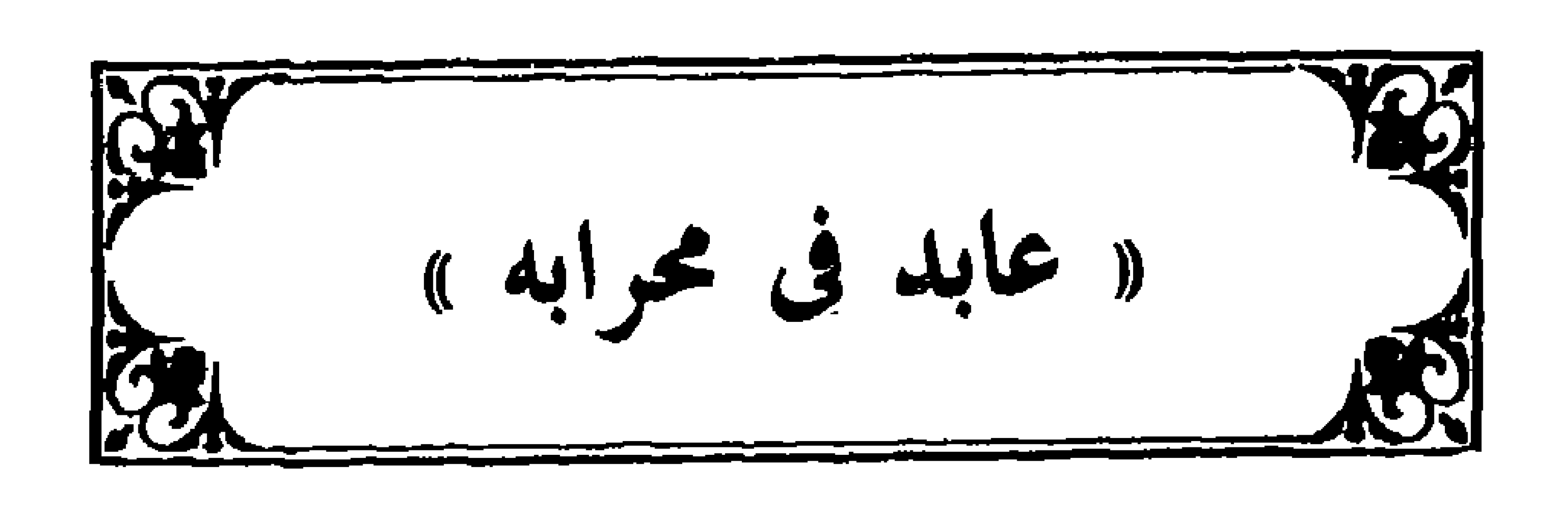
فقد قال الحافظ بن حجر .. الولى هو العالم بالله المواظب على طاعته المخلص فى عبادته . واستدل بقول الله تعالى : **﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾**[2] .

فمن تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصره .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة .

(٢) يونس : آية ٦٢ ، ٦٣ .



« عابد فى محرابه »

والحقيقة أنه لم يخل عصر من العصور من أولياء الله ، ومن عباد الرحمٰن المخلصين وهذا واحد منهم .

فمن ياترى هذا العبد المحظوظ الذى نال شرف الولاية والقرب من ربه .

إنه عبد صالح .

إنه رجل تقى .

إنه إنسان صاحب شفافية وصفاء .

إنه جريج العابد .

إى وربى إنه عابد من عُبَّاد الرحمٰن هكذا أخبرنا الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فى حديثه الذى معنا .

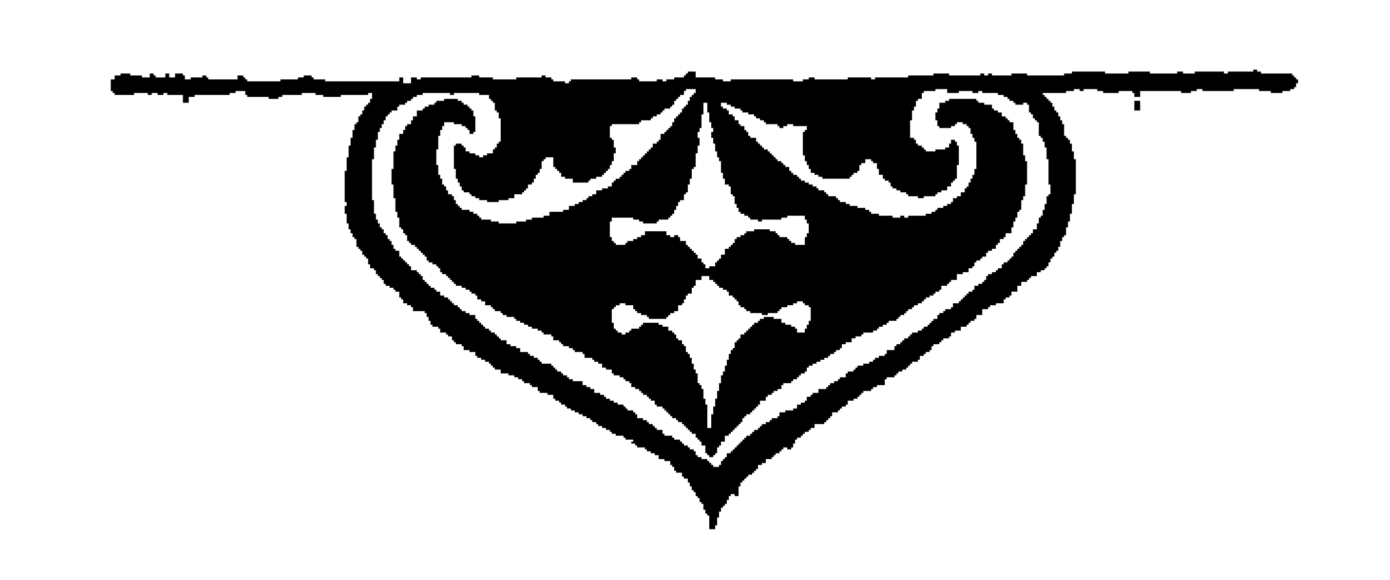
أخذ على نفسه العهد فى طاعة ربه ، وألزمها أن تكون خاضعة لجلاله متذللة بين يدى عزته وسلطانه ، مبتهلة إليه فى الغدو والآصال، واتخذ لنفسه صومعة يخلو فيها بربه ساجدًا وراكعا ، بعيدا عن هم الحياة وضنكها ، وعن أعين الناس وألسنتها .

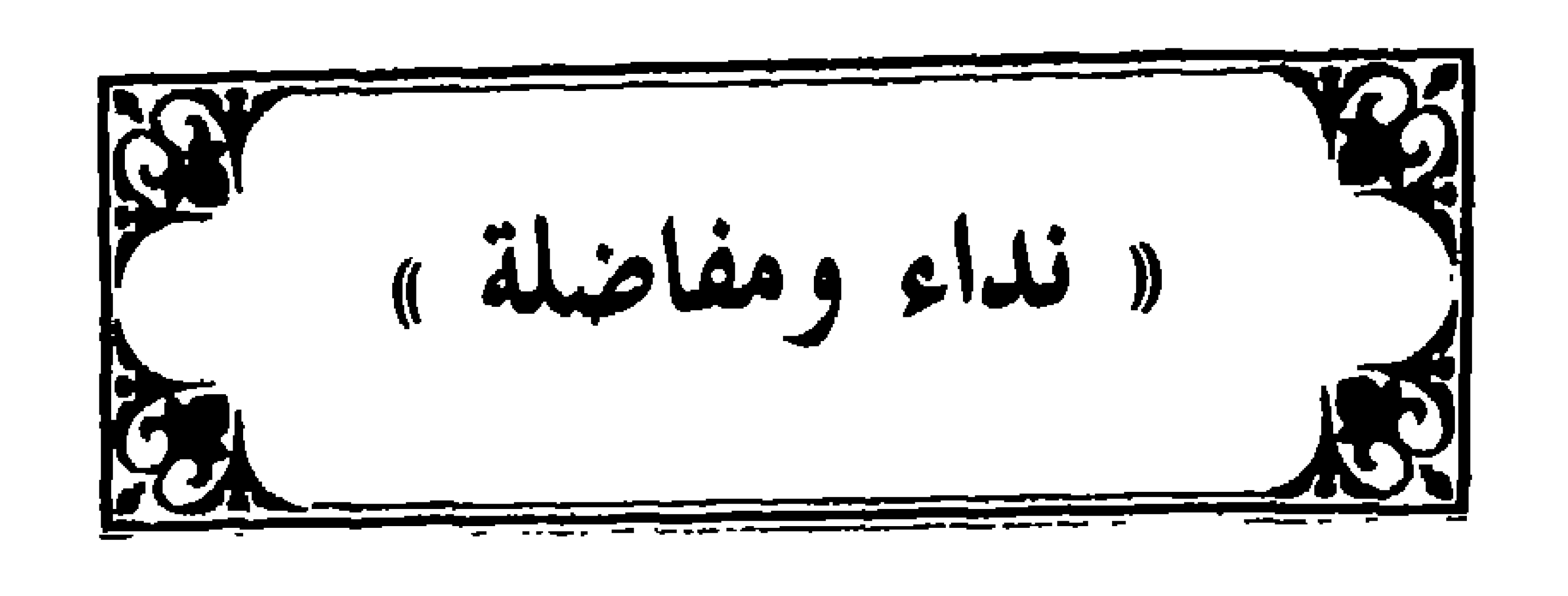
وظل الرجل العابد يعبد ربه ويذكره ، ودخلت حلاوة العبادة قلبه وحلت الهداية بفؤاده .

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

حلت الهداية قلب جريج ، فتعلق بالله ، وفنيت نفسه فى حبه ، وصار معه فى حركته وسكونه ، فى ليله ونهاره .

حلت الهداية قلب جريج فأصبح ذاكرا لربه ، واثقابه ، مراقبا له ، مطيعا ، خائفا ، محبا ، وشغف بالعبادة والنسك ، ووجد فى الصلاة لذته وقرة عينه ، فأدى الفرائض وزاد عليها النوافل .





« نداء ومفاضلة »

وفى يوم من الأيام ،

وفى ساعة صلاته وعبادته ،

وفى اللحظة التى يقف فيها بين يدى محبوبه .

جَاءت أمه ونادته من خارج صومعته .

يا جريج .. يا جريج .

وهنا تحير العابد ماذا يصنع ؟

هل يستجيب لنداء أمه أم يستمر فى صلاته أم ماذا يفعل ؟

لا .. لابد من إكمال الصلاة ثم بعد ذلك أجيبها .

وفضل العابد صلاته على أمه . وصرخت أمه به ثانية .

يا جريج ولكنه فضل صلاته على أمه أيضا .

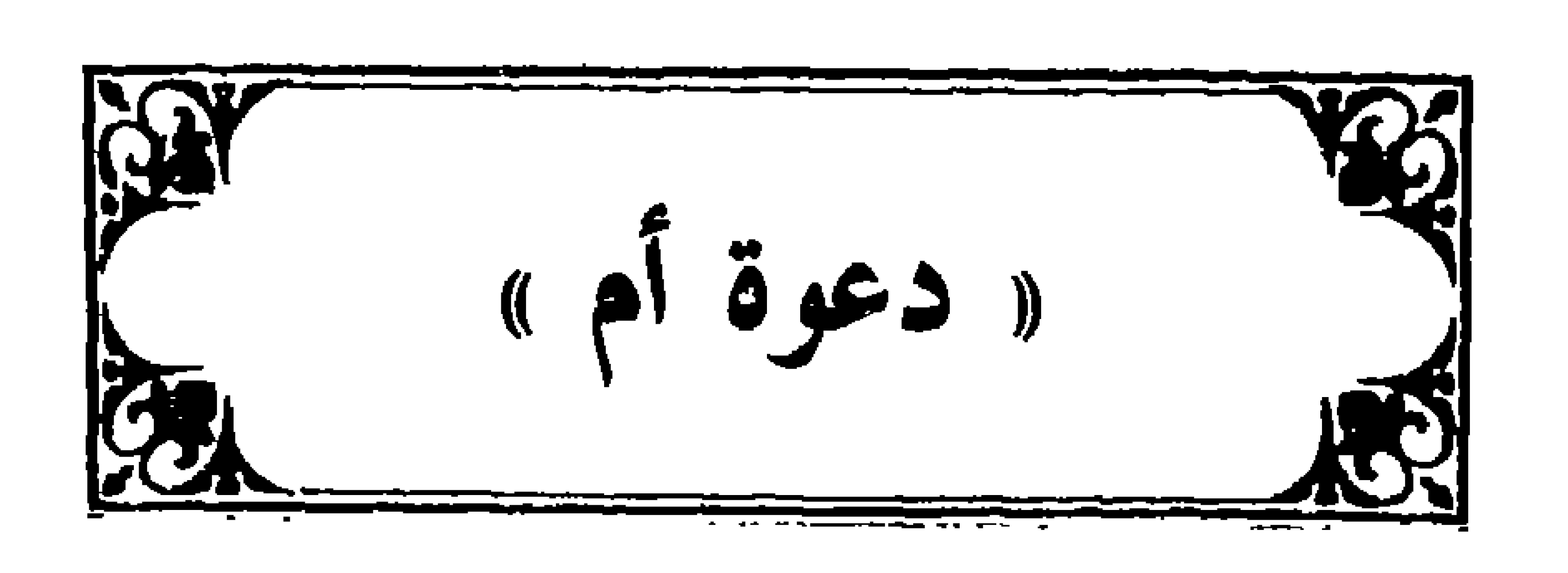
وفى اليوم الثانى جاءت أمه وكان يصلى أيضا ونادته .

يا جريج . فلم يستجب لها وأخذ بعمل مفاضلة قائلا :

أى رب أمى وصلاتى فآثر صلاته على أمه . ومشت الأم .

وفى اليوم الثالث أتته وصرخت به يا جريج وكان فى صلاته

فقال أى رب أمى وصلاتى .. فآثر صلاته على أمه .



« دعوة أم »

فلما لم يجبها دعت عليه وقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر فى وجوه المومسات !!

يا لها من دعوة حامية ! ..

يا لها من كلمة شديدة ! ..

نعم لقد أخطأ جريج العابد عندما فضل صلاته على أمه .

فقد ذكر إمامنا النووى ذلك قائلا قال العلماء :

كان الصواب فى حقه إجابتها لأنه كان فى صلاة نفل والاستمرار فيها تطوع لا واجب وإجابة الأم وبرها واجب وعقوقها حرام ، وكان يمكنه أن يخفف صلاته ويجيبها ثم يعود إلى صلاته . ولكن .

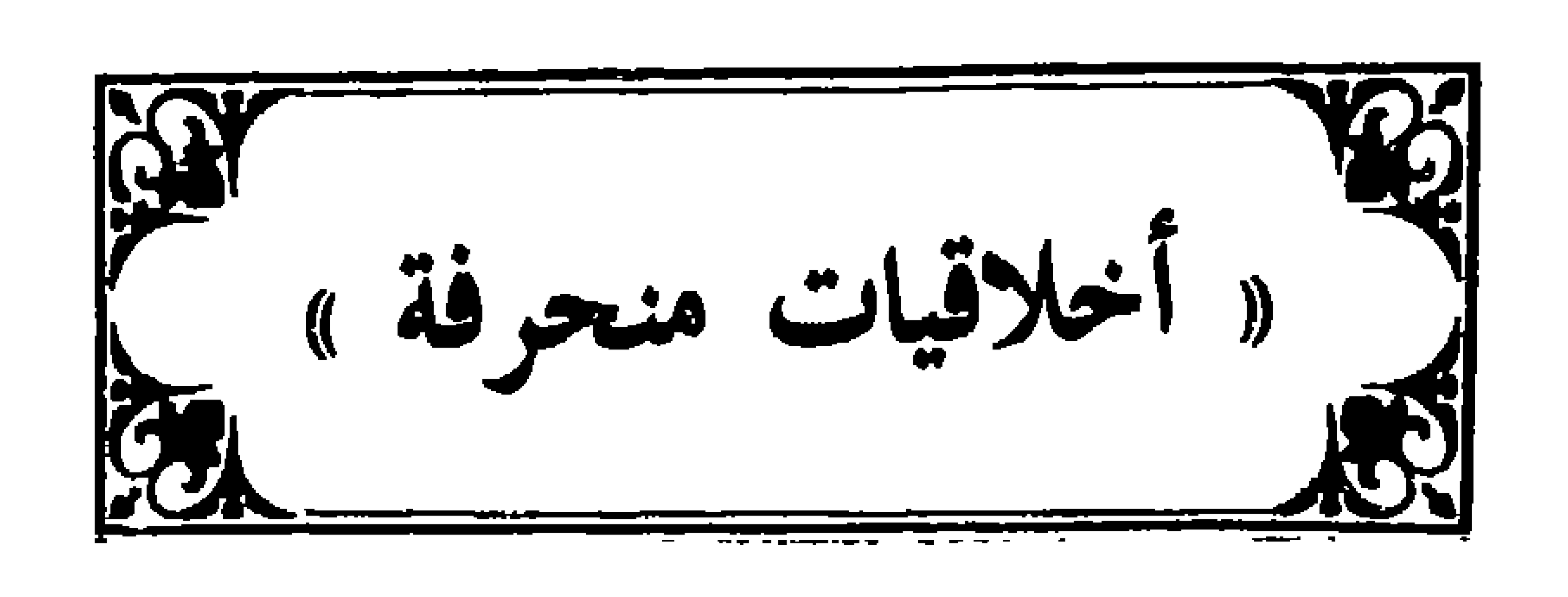
لعله خشى أنها تدعوه إلى مفارقة صومعته والعود إلى الدنيا وحظوظها ومتعلقاتها وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد عليه .

يا سبحان الله !

أيخرج الرجل من صلاته ليكلم أمه .

أيترك العبد موقفه بين يدى ربه ليلبى نداء والدته .

ألهذا الحد مجدت الأديان الآباء والأمهات وقدمتهم على النوافل من العبادات والطاعات .



« أخلاقيات منحرفة »

وإذا كان الأمر كذلك .

فماذا يقال عن المنتهكين لحرمات الآباء والأمهات ؟

فما من يوم إلا وتطالعنا الصحف المحلية والعالمية عن جرائم يعف اللسان عن ذكرها ، والقلم عن تسطيرها .

فقد تطورت العلاقة فى أيامنا هذه بين الآباء والأبناء فبعد أن كان الابن لا يجرؤ على الجلوس ووالده واقف كان يقبل يدى أبويه كل صباح .. يعاملهما باحترام ووقار .. أصبحنا نسمع عن الابن يقتل آباه .. والابنة تقتل أمها .

ودعنى أضع أمامك – أيها المسلم – هذه الأحداث الأليمة التى ذكرتها الصحف لتعلم إلى أى حد وصل الانحراف ، وعمت البلوى وخذ إليك ما ذكره أحد العاملين فى المحاكم لترى الحقيقة فقد قال :

إنه من خلال عملنا نجد صوراً عديدة لعقوق الوالدين ومن هذه الصور :

● أم فقيرة وأب مريض مقعد فى الفراش .. كان أملهما فى الحياة أن يتعلم ابنهما ويصبح طبيبا وعملا كل ما فى وسعهما

لتحقيق هذا الهدف حتى باعا السرير الذى يناما عليه واشتغلت الأم خادما فى البيوت حتى تخرج ابنهما وعمل أستاذا بالطب كما عمل فى أكثر من دولة عربية وأصبح ثريا ولكنه لم يرد الجميل إلى أبويه بل انقطع عنهما ورفض الإنفاق عليهما ولم يخجل الأستاذ الجامعى حين وقف ضدهما فى المحكمة ليرفض الإنفاق عليهما .

● شاب لجأ إلى حيلة خسيسة لكى يطرد والديه من شقتهما بعد أن سمحا له بأن يتزوج ويعيش معهما فى هذه الشقة .. فاتفق مع زوجته أن يطلقها صوريا ثم تطلب منه إخلاء الشقة لحضانة طفلها وتم إخلاء الشقة بالفعل وحين خرج الوالدان من شقتهما أعاد الشاب زوجته إلى عصمته بعقد عرفى وعاش معها وترك والديه فى الشارع .

● ابن ضرب أمه العجوز بعصا غليظة فأحدث بها إصابات كثيرة نقلت على أثرها إلى المستشفى لأنه طلب منها أن تترك شقتها وتعيش فى دور المسنين فرفضت .

● أب تعود أن يعيش فى شقته وعندما كبر الابن طلب من أبيه أن يترك الشقة ويعيش فى دور المسنين وفعلا ذهب الأب إلى دور المسنين فلم يسترح فعاد إلى بيته مرة ثانية فطرده ابنه ونام الأب على السلم حتى مطلع الفجر .

● فتاة اختلفت مع أمها فأمسكت بسكين وطعنتها بها فى صدرها طعنة نافذة .

وغيرها كثير وكثير وما جريمة قاتل والديه عنا ببعيدة .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلى الكبير .

حسبنا الله ونعم الوكيل .

أين هؤلاء من قول الله تعالى

﴿ فَلاَ تَقُل لَهما أُفٍّ ولَا تنهرهُمَا وَقُل لَهما قَولاً كَرِيمًا ﴾[1] .

أين هؤلاء من قول الله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْه حُسنًا ﴾[2] .

أين هؤلاء من قول النبى ﷺ : « **رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف قيل من يا رسول الله قال : من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة** »[3] .

ومن قوله صلوات الله عليه لهذا الرجل .

فقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص أقبل رجل إلى نبى الله ﷺ فقال : **أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله قال : فهل من والديك أحد حى ؟ قال : نعم بل كلاهما قال فتبتغى الأجر من الله ؟ قال : نعم ، قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**[4] .

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : قدمت

---

(١) الإسراء : آية ٢٣ . (٢) العنكبوت : آية ٨ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١٦ باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة ص ١٠٨ .

(٤) متفق عليه وهذا لفظ مسلم انظر رياض الصالحين ص ٩٦ باب بر الوالدين .

على أمي وهى راغبة أفأصل أمى ، قال : نعم صلى أمك »[1] .

بل انظر معى بعين العظة والاعتبار إلى هذه الحادثة :

فعن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال إنى خطبت امرأة فأبت أن تنكحه فغرت عليها فقتلتها فهل لى من توبة قال : أمك حية قال لا قال تب إلى الله عز وجل وتقرب إليه ما استطعت فذهبت فسألت ابن عباس لم سألته عن حياة أمه فقال إنى لا أعلم عملا أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة »[2] .

واستمع بعين البصيرة واعمل ، **فعن أبى بردة قال سمعت أبى يحدث أنه : شهد ابن عمر رجلا يمانيا يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره ويقول :**

إنى لها بعيرها المذلل إن أذعرت ركابها لم أذعر

ثم قال يا ابن عمر أترانى جزيتها قال : « ولا بزفرة واحدة ... »[3] الحديث .

واعلم أيها الإنسان علم اليقين أن النبى ﷺ قال : **من بر والديه طوبى له زاد الله عز وجل فى عمره**[4] .

---

(١) متفق عليه . انظر أيضا رياض الصالحين ص ٩٦ باب بر الوالدين .
(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد باب بر الأم ص ٣ .
(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد باب جزاء الوالدين ص ٤ .
(٤) رواه البخارى فى الأدب ص ٦ .

وأنه طالب أتباعه بالبعد عن سب الوالدين فقال : **من الكبائر أن يشتم الرجل والديه فقالوا وكيف يشتم قال يشتم الرجل فيشتم أباه وأمه**[1] .

بل إنه أمر لأحد أصحابه بأن يضحك والديه بعد البكاء . فعن ابن عمرو قال:جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكيان قال : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »[2] .

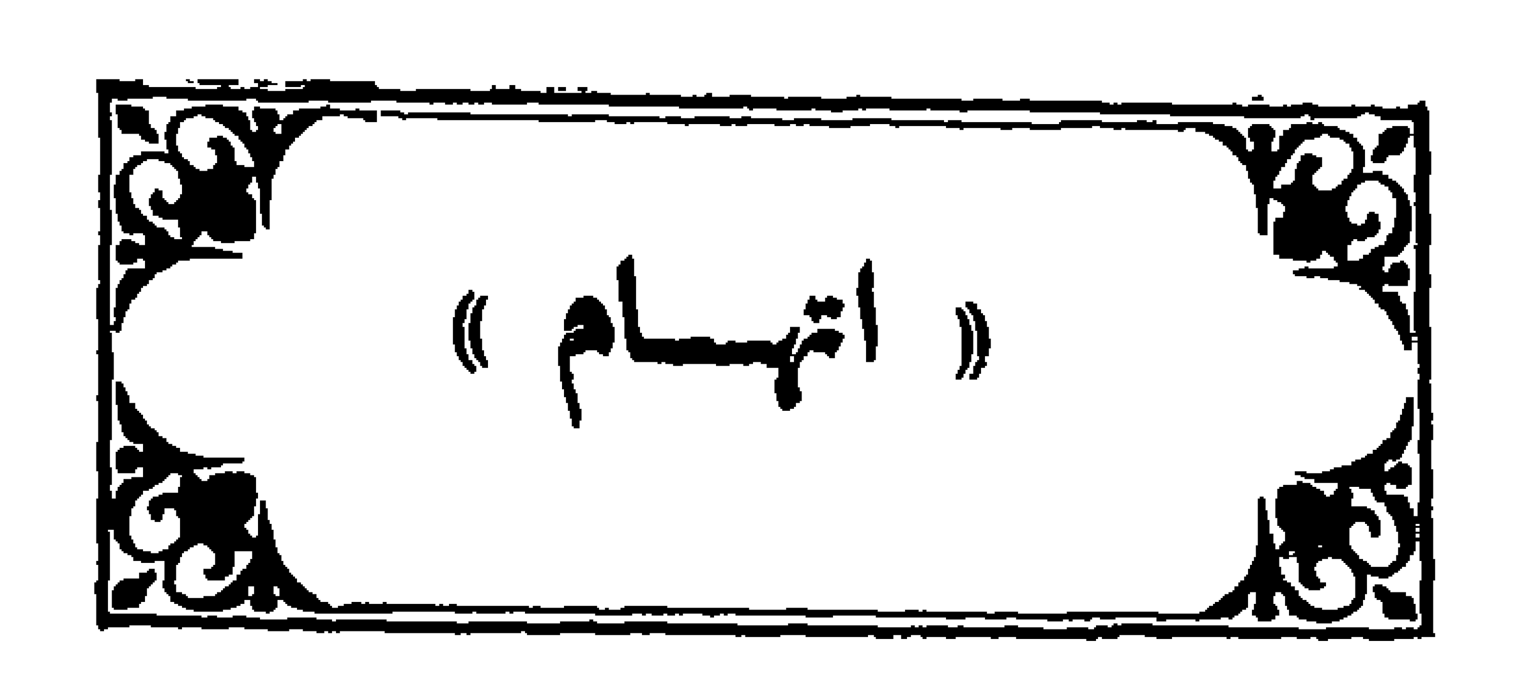
ولعظم بر الوالدين جعل لهما نصيبا بعد الموت : **فقد حدث أبو أسيد القوم فقال:كنا عند النبي ﷺ فقال رجل:يارسول الله هل بقي من بر أبوى شيء بعد موتهما أبرهما به قال نعم . أربع خصال الدعاء لهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى رحمته لك من قبلهما »**[3] .

وعن أبي هريرة قال : « **ترفع للميت بعد موته درجته فيقول : أى رب أى شيء هذه ؟ فيقال:ولدك استغفر لك »**[4] .

ولشدة حقوق الوالدين ورد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه »**[5] .

« فاللهم باعد بيننا وبين عقوق والدينا كما باعدت بين المشرق والمغرب وارزقنا برهما والإحسان إليهما وأرحمهما فى الدنيا والآخرة» .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) كل هذه الأحاديث رويت فى كتاب الأدب المفرد للإمام



« اتهـــام »

وجريج العابد التقى النقى الصافى دعت عليه أمه .

ولكنه لم يكن – كهؤلاء الآثمين – عاقا لها ولكنها نادته فى صلاته فحار بين ربه ونداء أمه .

واستجاب الله دعاء الأم وكتب دعوتها على وليدها .

ومرت الأيام .

وكانت الصومعة التى يتعبد فيها جريج بجوار مكان يرعى فيه أحد الرعاة غنمه .

وحاولت امرأة بغى[1] أن تفتن « جريج » العابد فلم تستطع .

لأنه قريب من ربه بعيد عن محارمه .

متذلل إلى خالقه . منقطع عن الخلق ونزواتهم .

ولقد دلت رواية الحديث أنها اتفقت مع القوم على فتنته واتفقوا معها فلما لم تسطع ذهبت إلى راعى الغنم واسمه « يابوس » كما ورد مصرحا به فى صحيح البخارى – ومكنته من نفسها ومضت أيام وأيام وحملت البغى من الراعى وتمت مدة الحمل ووضعت المرأة

---

(١) المرأة البغى هى الزانية .

الولد وذهبت إلى الملك واتهمت جريجا بالزنا وادعت أن الولد ولده وأنه ارتكب بها جريمة الزنا .

وهنا نسى الناس حسنات الرجل ، ورموه بالخيانة ، وذهبوا مسرعين إلى صومعته يهدمونها ..

هذا يضربه بيده ..

وذاك يسبه ويقذفه ..

وهؤلاء يطلقون ألسنتهم الحداد سبا وشتما ولعنا ..

والحرس يربطونه ويهدمون صومعته بالفؤوس .

ويذهبون به إلى ملكهم ويمر هو على المومسات والزوانى ، ويتذكر دعوة أمه وترن فى أذنيه تلك الكلمة التى سمعها

اللهم لا تمته حتى ينظر فى وجه المومسات .

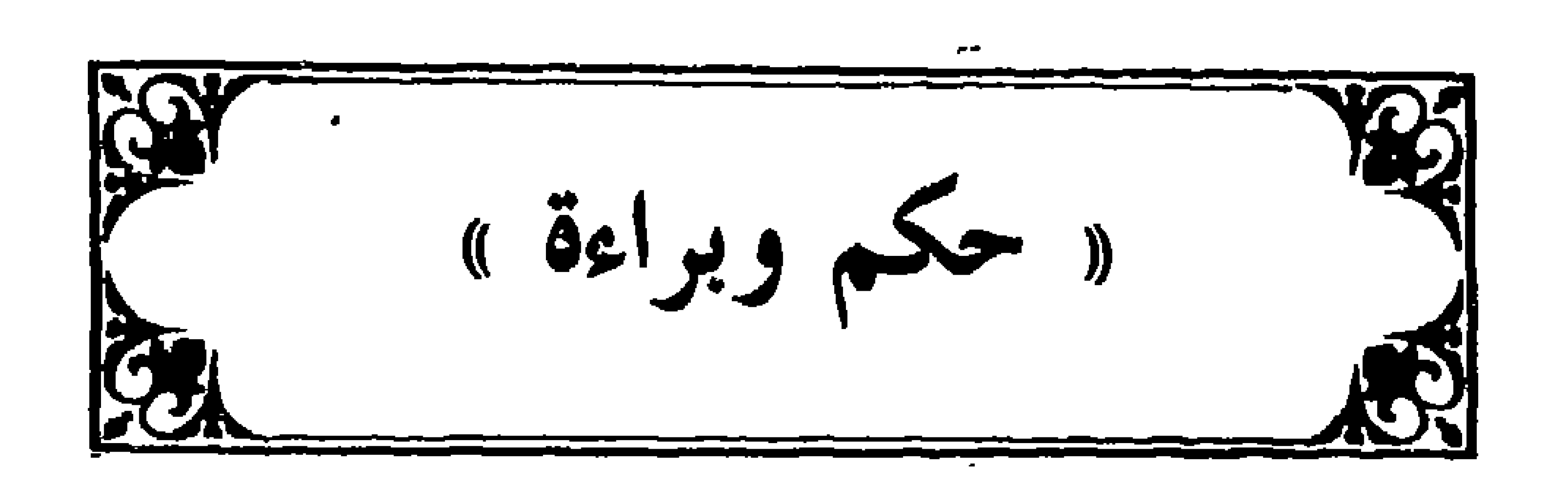
ويبتسم العابد لأنه علم أن الله قد أجاب دعوة أمه ، وأنه لا محالة ناج بإذن ربه .

إنه إنسان عفيف .

إنه عابد صالح .

إنه خاشع ضارع لله رب العالمين .





ويصل المتهم إلى ساحة المحكمة ليجد المدعية عليه فى انتظاره .

وهنا يسأله الملك .

ما تقول هذه المرأة ؟

قال ما تقول : ؟ قال إنها تدعى أن ولدها هذا منك فيقول :

دعونى أصلى ركعتين .

ويستجيب القضاء .

ويسجد العابد لربه يطلب منه أن يبرئه مما رماه به القوم .

يسجد جريج لمولاه ويسأله أن يظهر الحق ويبطل الباطل .

وينتهى من صلاته ويسأل .

أين الغلام ..؟ فيقولون له هاهوذا فى حجرها .

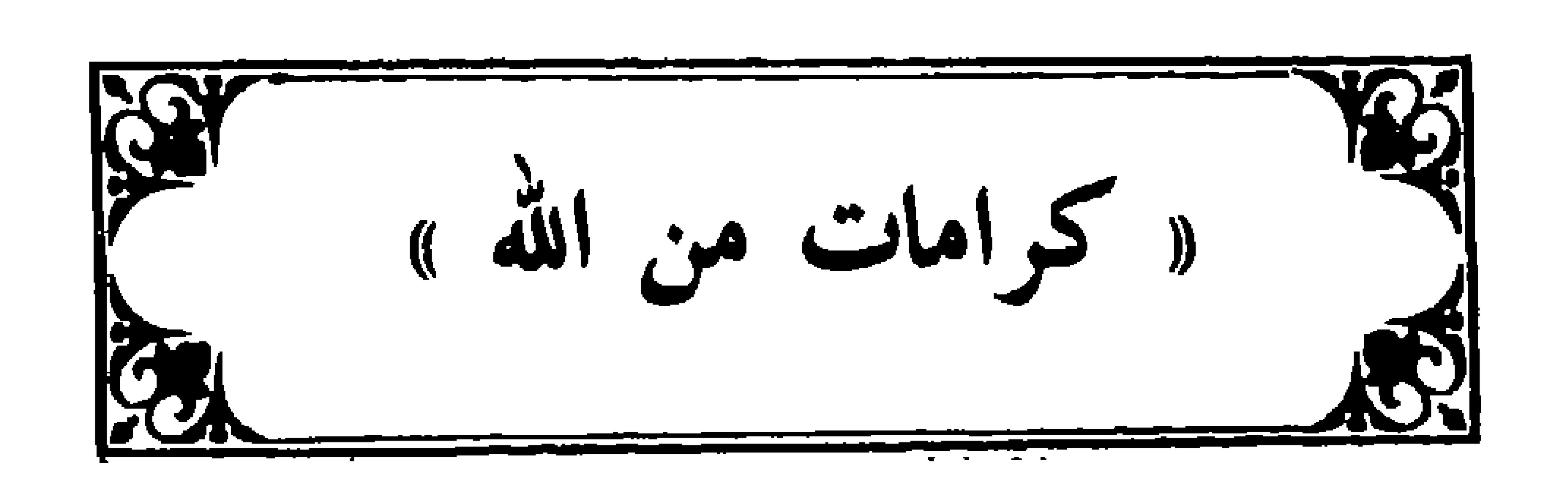
فيضربه فى بطنه ويقول له يا غلام .

من أبوك ؟

قال الغلام وهو فى مهده : فلان الراعى – سبحان من أنطقه فى مهده .

وهنا يجتمع الناس على هذا العابد يقبلونه ويطلبون منه السماح عما بدر منهم ويتباركون به ، ويتمسحون بجسده ، وهو يقص عليهم أسباب ما حدث له قائلا أدركتني دعوة أمي .





« كرامات من الله »

يالها من كرامة عجيبة أجراها الله على يد عبد من أوليائه الصالحين، وعباده العارفين المتقين .

وكرامة الأولياء حق : وهى أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم بمتابعة نبى مصحوب بصحيح الاعتقاد، والعمل الصالح .

وفى كل زمان ومكان تجد أهل الكرامات من أولياء الله تعالى . بدليل ما قاله المصطفى صلوات الله عليه وسلامه فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : **قال رسول الله ﷺ** : « **لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون(١) فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر** »(٢) .

وقد كان .

فعن ابن عمر رضى الله عنه قال ما سمعت عمر رضى الله عنه يقول لشيء قط إنى لأظنه كذا إلا كان كما يظن » .

وما قصة أهل الرجيع وخبيب بن عدى عنا ببعيد .

---

(١) محدثون ، بضم الميم وسكون الحاء وفتح الدال أى ملهمون .

(٢) رواه البخارى – انظر رياض الصالحين رقم ١٥٠٩ ص ٣٢٦ .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط علينا سريه ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه،فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهزأة بين عسفان ومكة ذكروا الحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا بقريب من مائة رجل رامٍ فاقتصوا آثارهم،فلما أحس بهم عاصم بن ثابت وأصحابه لجئوا إلى موضع فأحاط بهم القوم فقالوا : انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا فقال عاصم بن ثابت:أمّا أنا فلا أنزل على ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب وزيد بن الدثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم ، أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر والله لا أصحبكم ، إن لى بهؤلاء أسوة يريد القتلى – فجروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خبيبا ، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها ، فأعارته ، فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتخشين أن أُقتله ما كنت لأفعل ذلك قالت : والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب ، فوالله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وإنه لموثق بالحديد ، وما بمكة من ثمرة ... »[1] الحديث

(١) الحديث بتمامه رواه البخارى انظر رياض الصالحين رقم ١٥١٤ ص ٣٢٨ .

والشاهد هنا

كرامة خبيب ورزق الله له بالعنب وما بمكة حبة من عنب .

وعن أنس رضى الله عنه أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ خرجا من عند النبى ﷺ فى ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد، حتى أتى أهله وفى بعض روايات الحديث إن الرجلين أسيد بن حضير وعماد بن بشر .

وما أكثر كرامات الأولياء فى كل زمان ومكان !

فها هو ذا الإمام النووى - رحمة الله علية - يعقد فصلا لكرامات الأولياء فى كتابه رياض الصالحين يختمه بقوله .

وفى الباب أحاديث كثيرة صحيحة سبقت فى مواضعها من هذا الكتاب منها حديث الغلام الذى كان يأتى الساحر والراهب، ومنها حديث جريج - الذى تعرضنا لشرحه، وحديث أصحاب الغار الذين أطبقت عليهم الصخرة، وحديث الرجل الذى سمع صوتا فى السحاب يقول اسق حديقة فلان، وغير ذلك والدلائل فى الباب كثيرة مشهورة » اهـ

أما حديثنا هذا ففيه من الفوائد ما لا يستطيع الإنسان حصره ودعنى أهمس فى أذنيك - أيها المسلم الكريم - بما ذكره العلامة النووى فى شرحه لهذا الحديث بصحيح الإمام مسلم رحمه الله قال عليه سحائب الرحمة ما نصه :

« وفى حديث جريج هذا فوائد كثيرة منها :

عظم بر الوالدين وتأكد حق الأم وأن دعاءها مجاب وأنه إذا تعارضت الأمور بدىء بأهمها .

وأن الله تعالى يجعل لأوليائه مخارج عند ابتلائهم بالشدائد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِب** ﴾[1] .

وقد يجرى عليهم الشدائد فى بعض الأوقات زيادة فى أحوالهم وتهذيبا لهم ، ولطفا .

ومنها استحباب الوضوء للصلاة عند الدعاء بالمهمات .

ومنها أن الوضوء كان معروفا فى شرع من قبلنا،فقد ثبت فى هذا الحديث فى كتاب البخارى فتوضأ وصلى وقد حكى القاضى عن بعضهم أنه زعم اختصاصه بهذه الأمة .

ومنها **إثبات كرامات** الأولياء وهو مذهب أهل السنة خلافا للمعتزلة .

وفيه أن كرامات الأولياء قد تقع باختيارهم وطلبهم وهذا هو الصحيح عند أصحابنا المتكلمين ومنهم من قال لا تقع باختيارهم وطلبهم وفيه أن الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها ومنعه بعضهم وادعى أنها تختص بمثل إجابة الدعاء ونحوه وهذا غلط من قائله وإنكار للحس بل الصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من عدمه » اهـ[2] :

---

(١) الطلاق : آية ٢ .

(٢) انظر كلام الإمام النووى فى شرحه لصحيح الإمام مسلم .

ومن خلال كلام النووى يتضح لنا جواز الكرامات لأولياء الله وهذا ما ذهب إليه أهل السنة ومنهم الإمام الباقلانى وإمام الحرمين الجوينى ، والغزالى ، والقشيرى ، والطوسى ، والنسفى ، والبيضاوى فى طوالعه ، « ومصباحه » . وقال الشيخ الفقيه ابن رشد فى أجوبته : إن إنكارها والتكذيب بها بدعة وضلالة يثبتها فى الناس أهل الزيغ والتعطيل الذين لا يقرون بالوحى والتنزيل ويمجدون آيات الأنبياء والمرسلين .

ويستدل الإمام ابن رشد - رحمه الله عليه - على جوازها بوقوعها ، إذ لو لم تكن جائزة لما وقعت ، وثبت ذلك بالكتاب والسنة والآثار المسنده ، وها هى قصة أهل الكهف ، وقصة الخضر مع موسى - عليه السلام - وقصة ذى القرنين وقصة آصف بن برخيا مع سيدنا سليمان فى إحضار عرش بلقيس قبل ارتداد الطرف إلى غير ذلك مما ذكرناه آنفا .

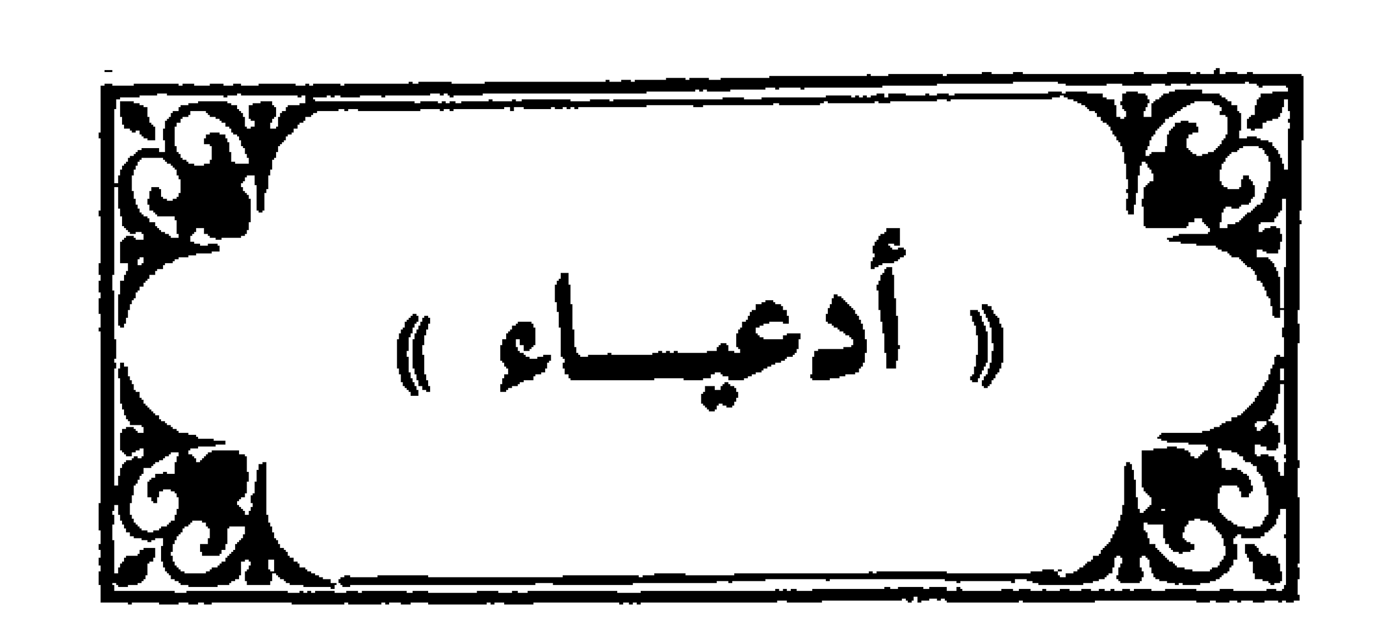
وها أنت أيها المسلم الكريم .

قد عرفت قدرة ربك على يد عبد من عباده الأولياء أنطق به غلامًا فى مهده وأبان من خلال ذلك عظيم إرادة الخالق جل ذكره وصدق الله العظيم .

﴿ ألا إنَّ أولَياءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١) .

---

(١) يونس : آية ٦٢ .



ها نحن قد رأينا ما قاله أهل السنة - رضوان الله عليهم - فى قضية كرامة الأولياء وإثباتها لهم . وكلام أهل السنة هذا بُنى على فهم صحيح ، وبيان واضح فخيرة العلماء هم الذين أبانوا وهم من أهل السنة ولكن .

لا يشك منصف فى أن عدداً كبيرا من جهلاء المسلمين ، ورواد الأضرحة قد أساءوا إلى الأولياء وإلى كراماتهم - مما جعل البعض ينكرها كلية - واعتقاد الجهلة فى الكرامة فى العصر الحديث سوّل لكثير من الدجالين استغلالها فى الاحتيال على البسطاء من الناس ، وإن كثيرا من المحتالين ليتوارون وراء تقوى مزيفة وصلاح دخيل ليبيعوا الكرامات بأبهظ الأثمان .

ولا نشك أيضا أن هناك كثيرا من الحمقى يدّعون كرامات ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك مثلما نسب ظلما من أن « السيد أحمد البدوى » صاحب الضريح المشهور بطنطا - مصر - كان يبرىء، الأكمه، والأبرص، والمقعد، والأعمى ، وأن « إبراهيم الدسوقى » صاحب الضريح المشهور بدسوق مصر - استطاع أن يخلص أمه من

قبضة سفاح أراد بها سوءًا وهو جنين فى بطنها إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة الباطلة .

وهؤلاء الذين أفسدوا التصوف الإسلامى الصحيح لا نكاد نجد لهم حرفة سوى الدجل والهدم فى كيان الإسلام .

بل إن الأدهى من ذلك أنك تراهم لا يقيمون الفريضة ولا يمتنعون عن شرب الخمر علنا ولا يراعون الله فى حق ولا حرمة . .

وهم قوم لا عمل لهم طول العام إلا التنقل من بلد إلى بلد لزيارة أضرحة الأولياء فهم للبطالة محترفون وإذا اعْتَرضْتَ على واحد منهم احتج لك بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين – وقرأ عليك قول الله ﴿ وفى السَّماء رِزْقُكُمْ ومَا تُوعَدُونَ ﴾[1] .

هؤلاء وأمثالهم أساءوا إلى الأولياء وجعلوا البعض ينكرون كراماتهم، ولذا فإنه يجب علينا أن نحارب أصحاب الشعوذة والدجل والتسول من جهلاء المسلمين بالحجة والبيان وأن نثبت لهم أن الأولياء مبرؤون عن أفعالهم البَلْهَاء .

كما أنه يجب علينا ألا نعتمد إلا على أقوال العلماء العاملين بالسنة النبوية المطهرة ، والمشهود لهم بالتقوى والصلاح والحفاظ على الدين ومن أمثال هؤلاء علماء أهل السنَّة .

كشيخ الإسلام النووى ، وشيخ الإسلام السيوطى ، وإمام الحرمين الجوينى ، وحجة الإسلام الغزالى وغيرهم كثير وكثير .

---

(١) الذاريات : ٢٢ .

والخلاصة

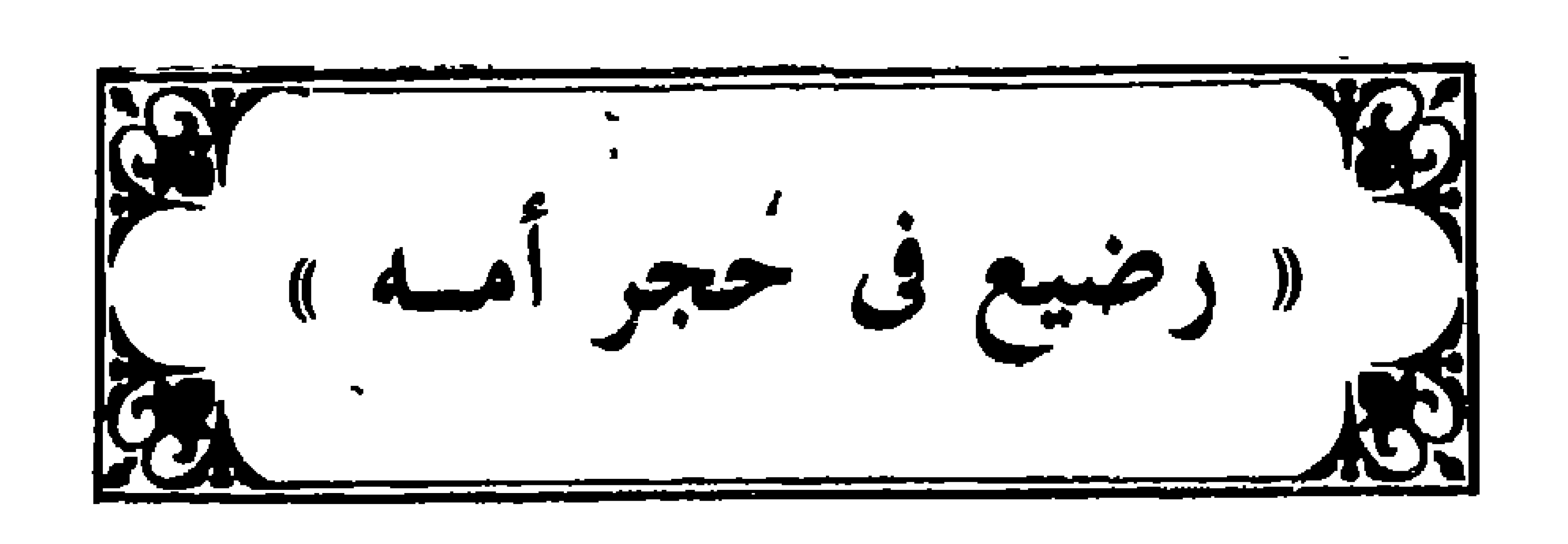
إن مسألة الكرامات لا تخص العقيدة فى شىء فلا يحق لأنصارها أن يتعصبوا لها ولا يعتبر منكروها عصاة وزنادقة، والمهم أن نصدق بما جاء فى القرآن من أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأن الله يجعل لمن يتقيه ويخافه عند المآزق مخرجًا والله مع المتقين .

الفصل الثالث



« ثالث ثلاثة تكلموا فى المهـد »

- رضيع فى حجـر أمـه .
- أمنية ودعـاء .
- مراجعة من المهـد .
- حقيقة الجـبروت .
- إنذار من الرسول .
- اتهـام باطـل .



« رضيع فى حُجر أمـه »

هذا هو ثالث ثلاثة تكلموا فى المهد .

وها هو ذا رسولنا – صلوات الله عليه وسلامه – يذكر لنا سبب نطقه وكلامه ، وإظهار نعمة الله على لسانه .

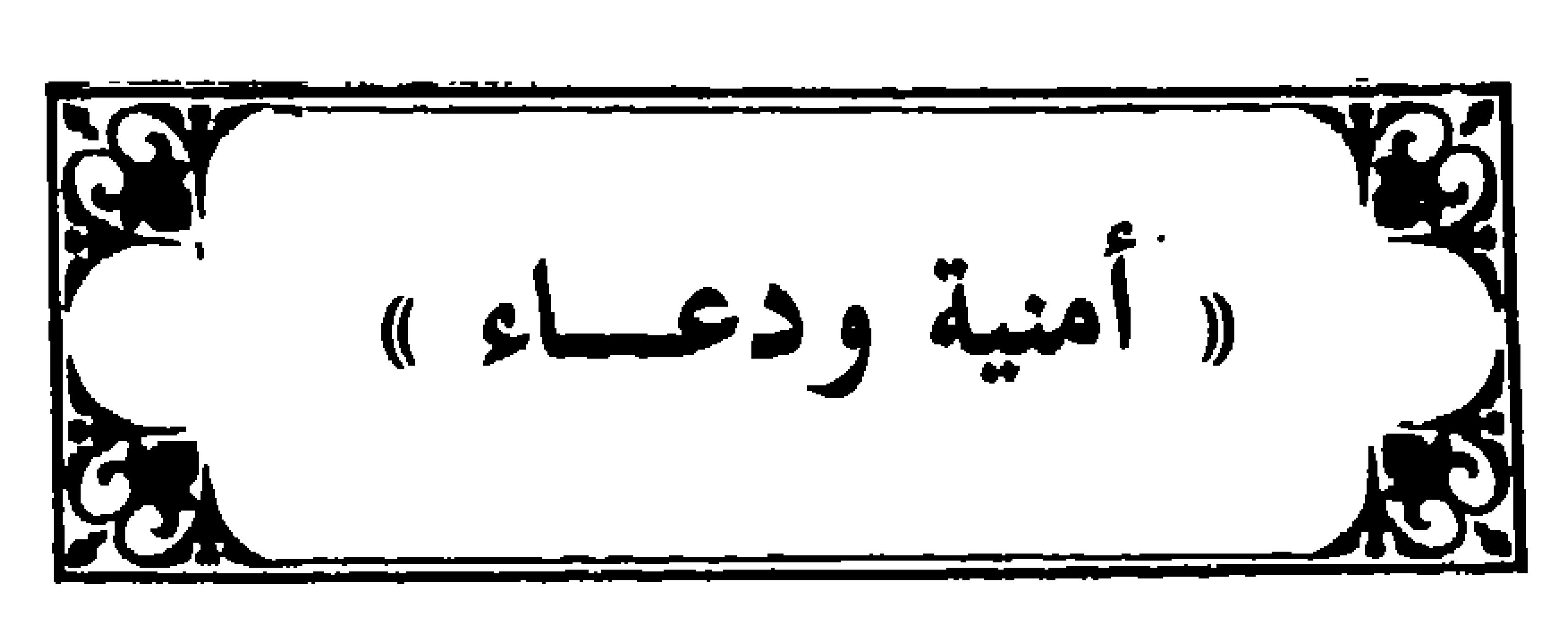
إنه طفل رضيع لا يعقل من الأمور شيئا .

إنه صبى كبقية الصبية لا يهتم بما يحدث حوله فى دنيا الناس من ضيق وضنك، أو نعمة وسعة، ولا يفكر فى عمرانها إن عمرت ، ولا فى خرابها إن خربت، وليس له هم إلا أن يرضع فيشبع ثم ينام ويقوم إلى أن يأذن الرب – تعالى – بانتهاء فترة الطفولة من حياته .

وفى لحظة من اللحظات ، وبينما الصبى يرضع ثدى أمه كعادته إذ مر رجل راكب دابته الفارهة الحاذقة النفيسة ذات المنظر والجمال يكمل جمالها ما يلبسه هو من ثوب غالٍ ثمين ، يظهر فيه حسن الهيئة ، ويجعله موضع إجلال وتقدير فى نظر كثير من الناس ، والواقع يشهد أن عادة جم غفير منهم لا يهتم بالنظر إلى ذات الشخص ولا إلى أفعاله وأحواله وأخلاقه ، وإنما تتعلق نظراتهم بما يرتديه الممدوح من مظاهر زائفة ولو كان خاليا من معانى

المروءة والإنسانية . وقليل منهم من ينظر إلى العفة والمروءة والأخلاق .

مرَّ هذا الرجل المتبهرج فى ثيابه ، المعتلى دابته أمام هذه المرأة التى ترضع وليدها . ونظرت إلى حسن ثوبه ، وجمال دابته .



« أمنية ودعـــاء »

وهنا سرح خيالها .

وتمنت أن يعيش ولدها ، وأن يبلغ ما بلغ هذا الرجل . وهذه عادة الأمهات . فما من أم إلا وهى تتمنى السعادة والصفاء لأولادها ، وترجوا لهم الرخاء والصفاء فماذا حدث ؟

لقد رفعت الأم أكف الضراعة إلى بارئها طالبة منه — سبحانه — أن يحقق لها ما تتمناه لابنها قائلة :

اللهم اجعل ابنى مثل هذا

« مراجعة من المهد »

وتحدث المفاجأة .

ويفارق الصبى ثدى أمه ، وينطقه القادر المقتدر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ليطلب عكس ما طلبته له أمه قائلا :

اللهم لا تجعلنى مثله

ثم يعود إلى ثديها يلتقمه ليكمل شرابه ورزقه ويرتضع ، وتعجب الأم، وفي اللحظة نفسها حدثت حادثة أخرى .

فقد مرَّ جماعة من الناس بجارية . وهم يضربونها ، ويسبونها ، ويعلنونها ، ويرمونها ، بأشنع تهمتين ، وبأفحش جريمتين .

ماذا يقولون ؟

وبأى شيء يتهمـــون ؟

إنهم يتهمونها بالسرقة .

يتهمونها بالزنـــا .

والفتاة تردد حسبى الله ونعم الوكيل – حسبى الله ونعم الوكيل، وترى أم الصبى هذا الموقف فتصدق اتهام القوم، وتعود لرفع أكفها إلى السماء قائلة :

اللهم لا تجعل ابنى مثلها

فيترك الصبى ثديها ، ويدع الرضاع ليقول فى مهده .

اللهم اجعلني مثلها

يا سبحان الله .

ومن هنا راجعت الأم ابنها فسألته .

يقول الإمام النووى – رحمه الله – معنى تراجعا الحديث أقبلت على الرضيع تحدثه وكانت أولا لا تراه أهلا للكلام فلما تكرر منه الكلام علمت أنه أهل له فسألته وراجعته ... » اهـ

سألته أمه وقالت مستفهمة حقيقة الأمر ...

مر رجل حسن الهيئة فقلتُ اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فقلت اللهم لا تجعلنى مثله .

ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت فقلت اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقلت اللهم اجعلنى مثلها .

وينطق الصبى فى مهده قائلا .

إن ذلك الرجل جبار فقلت اللهم لا تجعلنى مثله .

سبحانك اللهم ربنا !

هل سمعت – أخا الإسلام – إجابة الغلام .

من الذى أعلمه بهذا ؟

من الذى ألهمه هذا ؟

إنه طفل رضيع لايعرف حال نفسه فكيف يعرف حال غيره ؟

إنه صبى صغير لا يعلم حقيقة الجبروت كما لا يعرف معنى التواضع فمن أين علمه ؟

والجواب .

أن ذلك إلهام من رب الأرباب ، وإكرام من مسبب الأسباب لقد ظهرت الحقيقة وبانت المعالم .

أهذا الغاره فى ملبوسه ، المعجب بمركوبه يتضح بشهادة طفل فى مهده أنه من المتجبرين، ويظهر أنه من المستكبرين .

إن حكم كثير من الناس على بنى جنسهم باطل فهم يحكمون على الثوب ولا يحكمون على المرؤة والأخلاق – وهذا هو عين الضلال .

فكم رأينا من أناس تزينوا بأفخر أنواع الثياب ، وتزخرفوا بأنقى أصناف الطيب ، وركبوا أجمل الدواب ، ولكنهم فقدوا معانى الإنسانية وخانوا الحياة بأفعالهم البهمية – وعاشوا أمواتا فى دنيا الناس وإنك لتعجب أشد العجب لمن يعتنى بتنظيف نعله أو ثوبه ، ولا يعتنى بتنظيف قلبه ، وهو يعلم أن وسخ النعل والثوب لا يورثان فى الآخرة عذابا ، ولا يشددان على النفس حسابا ، وان وسخ القلب بالحقد أو بغض الناس بلا ذنب يجعل القلب فى خراب ، ويسود الصحيفة والكتاب ويجعل بين صاحبه وبين الله كثيف الحجاب .

أظنك – أيها المسلم الكريم – تشاركنى الرأى فى أننا نحب أن يكون الإنسان – نظيف الثوب والبدن لأن النظافة من الإيمان .

وتكره وتذم من يلبس ثوبا نظيفا على جسد وسخ وهذا الذم لا لوم عليه ولا عتاب فبأى حق يرضى امرؤ أن يزين ظاهره بالثياب الحسنة والدابة الفارهة بينما باطنه مشوه ، ولسانه بذىء – وجوارحه متطاولة .

إن من يعتنى بخلقه وجسمه ويحتال فى جعلهما حسنين ينبغى له أن يعتنى أكثر من ذلك بخلقه وقلبه ونفسه وأن يحتال فى أن يجملهما بالتواضع فقديما قالوا :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

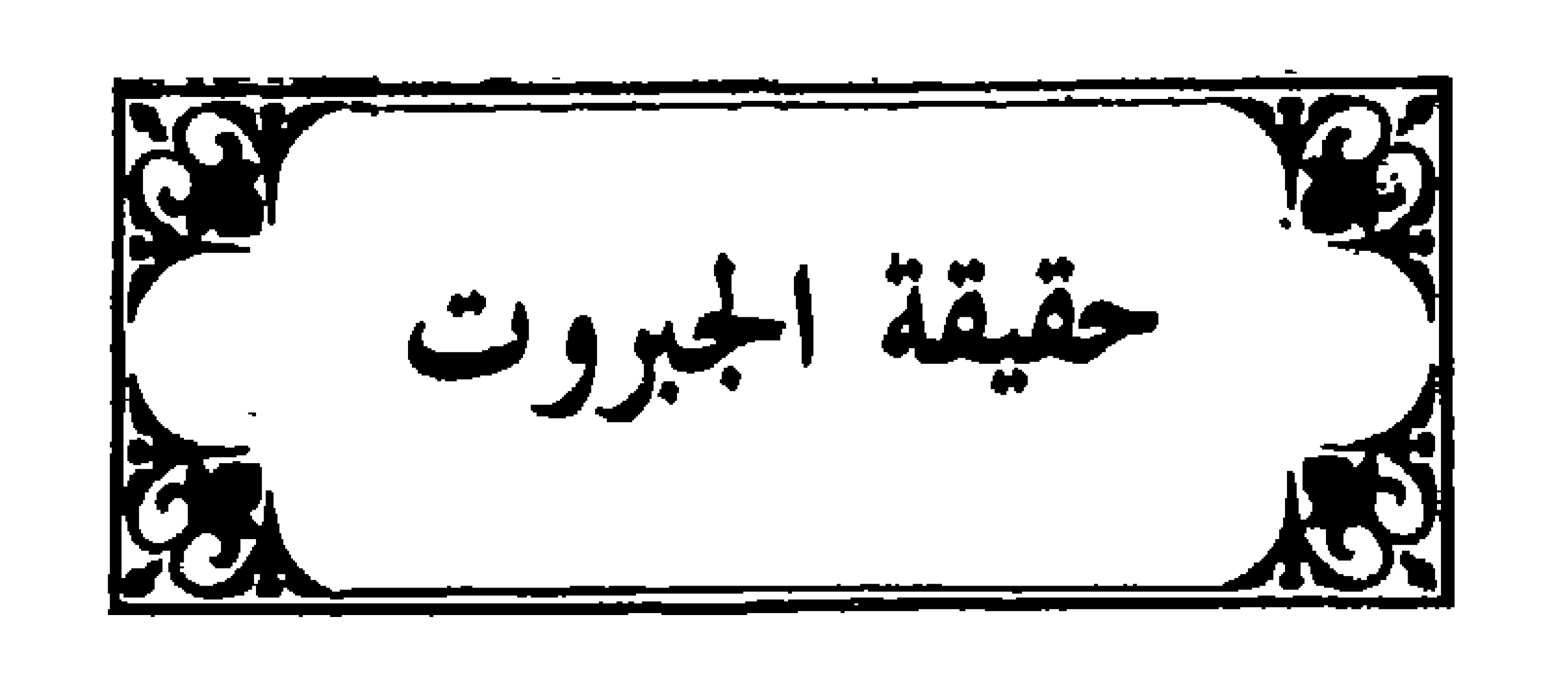
ولكنها عادة الجبروت .

وما زالت كلمة الصبى الناطق فى مهده ترن فى أذنى .

إنه رجل جبار .

يعيش فى عالم الجبروت والطغيان دون ما حساب للنتيجة الحتمية .





لكل جبار عنيد .

وها هى التساؤلات تراودنى .

هل الجبروت صفة طبيعية فى الإنسان ؟

هل يخلق الإنسان ومعه الجبروت يسير فى دمه ويمتزج بمشاعره ثم يسيطر بعد ذلك على تفكيره ؟

أم أن البيئة والظروف تلعبان دوراً خطيرا فى نشأة الجبار وتكوينه ؟ إن علم النفس الحديث ودراسات أبحاث الجريمة إلى عصرنا هذا لم تستطع أن تؤكد أن الجريمة والجبروت طبيعة فى الإنسان .

فابن أول نبى من صلبه قتل شقيقه دون ما ذنب جناه .

وابن نوح من أولى العزم من الرسل شق عصا الطاعة وكان من الكافرين والغلام الذى قتله الخضر لأن أبويه صالحان خشية أن يرهقهما طغيانا وكفرًا ..

وإبراهيم الخليل حاول أن يثنى أباه عن الكفر وضاعت محاولاته سدى .. ولا يمكن أن يؤخذ من هذا أن هؤلاء كانت الجريمة طبيعية

فى تكوينهم، فابن آدم حين فكر فى قتل أخيه وجد منه استسلاما وضعفا وقال له بعد تهديده بالقتل ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يدى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾(١) ولو وجد استعداداً للمقاومة لتغير وجه القضية ، والغلام فى قصة الخضر سبق فى علم الله أنه سيكون شريراً والبيئة ستلعب دوراً خطيرا فى حياته .

وفرعون كأوضح مثال للجبروت فى تاريخ البشرية ، تكاد تلمس سترا وراء جبروته ، وليس إلا ضعف قومه ، فلم يوجد منهم من يحاول رده إلى عقله مرة واحدة، ويسجل القرآن الكريم هذا فى إيجاز بقوله :

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾(٢) .

إذن فالبيئة هى المسؤول الأول والأخير فى خلق الجبروت وإيجاد الجبارين وتعال بنا – أيها المسلم الكريم – لنرى حديث القرآن عن الجبارين وهو يضرب لنا أمثلة حية ، ونماذج ناطقة تحكى قصصا لجبابرة ملأوا الدنيا جبروتا واستكبارًا ، وهو عندما يضرب هذه الأمثال للناس لا يضربها من أجل التسلى بها ، بل من أجل العظة والاعتبار .

ففرعون مؤسس أصيل فى دولة الجبروت .

وليس استكباره وجبروته منحصرين فى ادعائه الألوهية أو استعلائه على خلق الله ، بل يضاف إلى هذا وذاك امتهانه لآدمية الإنسان إلى درجة يعجز الوصف حيالها .

---

(١) المائدة : آية ٢٨ .

(٢) الزخرف : آية ٥٤ .

﴿ إنَّ فِرْعَونَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَل أهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتحِى نِسَاءهَمُ إنَّه كَانَ مِنَ المفْسِدِينَ ﴾[1] .

فقد أداه جبروته إلى أن يستأصل نسل بنى إسرائيل وذلك بذبحه للأبناء وإلى امتهان كرامة الرجال بإبعاده إياهم عن النساء .

وعندما أعلن السحرة – الذين أتى بهم فرعون ليتحدى موسى – إيمانهم بالله وخذلانهم لفرعون – لم يتوعدهم بمجرد الانتقام منهم .

ولكن عبقريته الفذة فى الجبروت تأبى أن يكون عاديا حين ينتقم ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُم مِنَ خِلاَفٍ ولأُصَلبكُّم فى جُذوعِ النَّخْلِ وَلَتَعَلمُنَّ أَيناَ أشدُّ عَذَاباً وَأَبقَى ﴾[2] .

إنها لذة الجبروت التى أعمت بصيرته، وجعلته يتفنن فى أساليب البطش ولكن ما أبعد الفرق بين قول فرعون فيما مضى بسبب جبروته ﴿ أَنَا رَبّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .

وقوله حين أدركه الموت ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرَائِيلَ وأنَا مِنَ المسْلِمينَ ﴾[3] .

ولكن :

حاشا لله أن ينطلى عليه مثل هذا الأسلوب ، أسلوب الجبار الذى ملأ الأرض فسادًا ، وتحدى الله فى كل مكان ، وتفنن فى إذاقة الآدمية ألوانا من البطش والفتك . حسبه أن ينجى ببدنه ليلقى على

---

(١) القصص : آية ٤ .
(٢) طه : ٧١ .
(٣) يونس : ٩٠ .

الأرض مهينا لا قدرة له ولا حركة فيه ليوقن الناس . بأن ألوهيته أكذوبة ﴿ آلآنَ وَقَد عَصَيْتَ قَبْل وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ فَاليَومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَة وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[1] .

والجبارون قوم مصابون بمركب النقص فلا هم لهم إلا إشباع نقصهم على حساب آدمية الإنسان !

فقد عتا جبابرة قريش واستعلوا على رسول الله ﷺ وكان أشدهم استعلاء فرعون هذه الأمة « عمرو بن هشام » الذى أدى به جبروته إلى أن يضرب امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة ، وفى موضع عفتها ولا ذنب لها إلا أنها آمنت بالله رب العالمين ومع ذلك لم تؤثر هذه الحادثة الأليمة فى إحساساته مع أنه ارتكب جرمًا .

﴿ تَكَاد السَّمَاوَاتُ يَتَفطَّرْنَ مِنهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدًا ﴾[1] .

ويتحدث الرسول الداعية قائلا عنه :

« إنَّ فِرْعَوْنِي أشد من فرعون موسى ، إن فرعون موسى حين أدركه الغرق قال : آمنت ، وفرعونى حين يدركه الموت يأبى إلا أن يصر على كفره » .

وغيرهما من أهل الجبروت كثيرا وكثيرا فكما قلنا آنفا إن أى أمة لا تخلوا من وجود أولياء لله الصالحين كذلك يمكننا أن نقول إن أى

---

(١) يونس : ٩٠ ، ٩١ .

(٢) مريم : ٩٠ .

وقت لا يخلو من وجود جبارين مستكبرين .

وصاحبنا الناطق فى مهده ألهمه الله أن يقول عن الجبار إنه جبار دون سابق معرفة .

وألهمه ألا يكون مثله عندما دعاه مرددًا « **اللهم لا تجعلنى مثل هذا** » لماذا ؟

لأن نهاية الجبروت أليمة ، وعاقبته وخيمة .



« إنذار من الرسول »

وها هو ذا رسولنا – عليه صلوات الله وسلامه – يحدثنا عن الجبارين والمستكبرين فى أحاديثه المباركات .

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال :

« يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل فى كل مكان يساقون إلى سجن من جهنم يُسَمَّى بولِس تعلوهم نار الأنيـار ويسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال »(1) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : عن النبى ﷺ : **« احتجت الجنة والنار قالت النار يلجنى الجبارون ويلجنى المتكبرون ، وقالت الجنة يلجنى الضعفاء ويلجنى الفقراء قال الله تبارك وتعالى للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء ثم قال للنار أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكم ملأها »**(2)

وعن ابن عمر عن النبى ﷺ يقول : **« من تعظم فى نفسه أو**

---

(1) رواه البخارى فى الأدب المفرد – باب الكبر ص ٨٢ .

(2) رواه البخارى فى الأدب المفرد – باب الكبر ص ٨١ .

اختال فى مشتيه لقى الله وهو عليه غضبان »[1]

وعن ابن مالك الطائى قال سمعت النعمان بن بشير يقول على المنبر :

« إن للشيطان مصاليا وفخوخا وإن مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بعطاء الله والكبرياء على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله »[2] .

وغير هذه الأحاديث كثير مما ورد عن النبى ﷺ .

ورحم الله نفيسة العلم عندما وضحت ضعف الإنسان وخنوعه قائلة .

علام يتكبر ابن آدم وهو تقلقه بقة ، وتنته عرقة ، وتميته شرقه » .

ورحم الله شاعر الحكمة عندما عاتب الذين ركبوا هواهم وأعرضوا عن نصح مولاهم قائلا :

مالى أراك راكبا لهواكا ... أظننت أن الله ليس يراكا
انظر لنفسك فالمنية حيثما ... وجهت وافقه هنا وهناكا
ياليتنى أدرى بأى وسيلة ... ترجوا الخلود وما خلقت لذاكا
ولقد مضى أبواك عما خلفا ... ولتمضين كما مضى أبواكا

لقد علمنا هذا الطفل الناطق فى مهده بقدرة بارئه ومصوره أنه لا يجوز لنا أن نحكم على الناس بما عليهم من لباس أو بما يعتلون

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد - باب الكبر ص ٨١ .

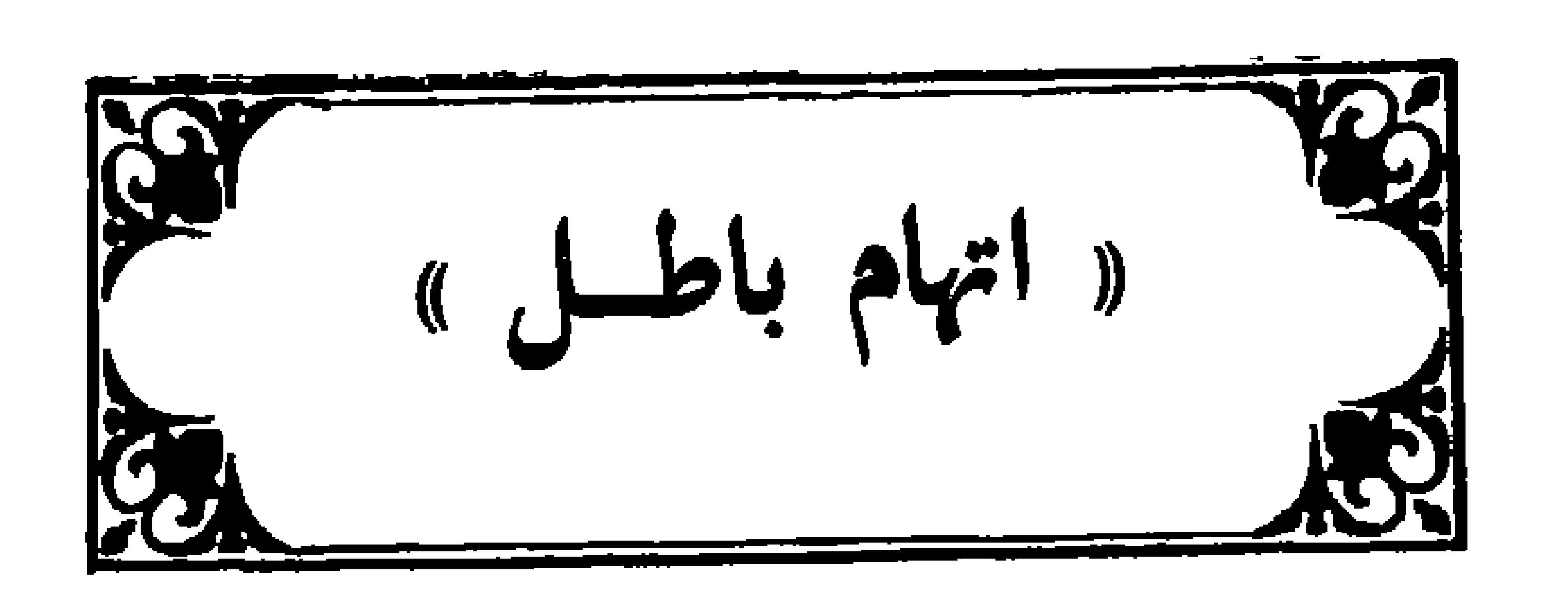
(٢) رواه البخارى فى الأدب ص ٨١ .

من دواب فقد يكون الإنسان لبَّاسا متنعما ومع ذلك لا يملك ذرة من رحمة الإنسانية .

وعلمنا كذلك أن ندعو الله معه أن يباعد بيننا وبين الكبر والجبروت وأبان لنا عظيم قدرة الله فى خلقه ﴿ **والله على كلّ شَىء قدير**﴾[1] وبهذا ينتهى الحكم من جانب الطفل عن شخصية هذا الرجل الذى سأل الله « ألا يجعله مثله » .



(١) آل عمران : آية ٢٩ .



« اتهام باطــل »

ويكمل الصبى حديثه مع أمه ليبين لها سبب قوله عن الجارية « اللهم اجعلنى مثلها » .

إنهم يقولون زنت ولم تزن .

ويقولون سرقت ولم تسرق .

إنها براءة من الله القدير على لسان هذا الصبى الصغير لهذه الفتاة المتهمة ظلما وزوراً .

فمنذ لحظات سمعنا عن براءة مريم الطاهرة على لسان ابنها المعجزة وها نحن نستمع من طفلنا هذا عن براءة تلكم المتهمة البريئة فكم من أناس اتهموا ظلما وزورًا باتهامات لا تمت إليهم بصلة .

وكم من أناس ألصقوا بالشرفاء أشد أنواع التهم .

ألم يتهم الناس نبى الله ﷺ بأنه ساحر ومجنون مع أنه أبعد الناس عن السحر وأكمل الناس عقلا ؟ .

ألم يتهم الناس نبى الله موسى بأنه كذاب مفتر وهو مبرأ عن هذا ؟

---

(١) آل عمران : آية ٢٩ .

ألم يتهم الناس نبى الله عيسى بأنه قال لهم إنى إله من دون الله وما قال ولا علم بهذا .

وما أكثر الأبرياء المظلومين .

وما أكثر الظالمين المتجبرين .

إن حادثة هذه الجارية التى اتهمت بالزنا والسرقة وما هى بزانية ولا بسارقة بشهادة هذا الصبى الذى أعلمه الله بهذا وأنطقه وألهمه لتذكرنا بحادثة الإفك التى رميت به أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . والذى تولى كبره أحد قادة النفاق عليهم لعنة الله .

فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه هذه الحادثة قائلا :

ذكروا أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه فأتيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد ما أنزل الحجاب فأنا أُحمل فى هودجى وأُنزل فيه مسيرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوهِ وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الرحْل فلمست صدرى فإذا عقدى من جَزْعِ ظفار(١) قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى فحملوا

(١) قولها وعقدى من جزع ظفار – أما العقد فمعروف نحو القلادة، والجزع خرزيمانى وظفار اسم موضع قرية فى اليمن .

هودجى[١] فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه قالت وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبّلن[٢] ولـم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم تستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلى[٣] الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلىَّ فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطَل المسلمى ثم الذكوانى قد عرَّس[٤] من وراء الجيش فأولج فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى وقد كان يرانى قبل أن يضرب الحجاب علىَّ فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى[٥] بجلبابى ووالله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أنا فى راحلته فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موعزين[٦] فى نحر الظهيره فهلك من هلك فى شأنى وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون[٧] فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى[٨] فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى

---

(١) الهودج – مركب من مراكب النساء . (٢) يهلن – أى يغشهن

(٣) تيممت منزلى : أى قصدته .

(٤) عرَّس : أى نزل والتعريس النزول .

(٥) خمرت وجهى : غطيته .

(٦) موعزين : الموعز النازل فى وقت الوَغره وهى شدة الحر .

(٧) يفيضون : قال القاضى معناها يخوضون .

(٨) يريبنى : أرابه ورابة أى أو همه وهى بفتح الياء ويجوز الضم .

كنت أرى منه حين اشتكى إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت(١) وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع(٢) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف(٣) قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه(٤) وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم ابن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب فأقبلت أنا وبنت أبى رهم قِبَل بيتى حتى فرغنا من شأننا فعثرتْ أم مسطح فى مرطها(٥) فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدراً قالت : أى هنتاه(٦) أو لم تسمعى ما قال قلت وما الذى قال فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددتُ مرضا على مرضى فلما رجعت إلى بيتى فدخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال كيف تيكم قلت أتأذن لى أن آتى أبوَى قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقين الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله ﷺ فجئت أبوى فقلت لأمى يا أمتاه ما يتحدث الناس فقالت يابنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة(٧) عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها

(١) نقهت : بفتح القاف أى أفقت من مرضى وبرأت منه .

(٢) المناصع : موضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها .

(٣) الكنف : جمع كنيف وهو المكان الساتر .

(٤) التنزه : طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء .

(٥) المِرط بكسر الميم كساء من صوف .

(٦) أى هنتاه : بإسكان النون وفتحها والإسكان أشهر قيل معناه ياهذه وقيل معناه ياامرأة وقيل معناه يابلهاء كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس .

(٧) الوضيئة : هى الجميلة الحسنة والوضاءة الحسن .

قالت قلت سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى و دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى ليستشيرهما فى فراق أهله قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود فقال يارسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا وأما على بن أبى طالب فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقْك قالت فدعا رسول الله ﷺ بريدة فقال أى بريدة هل رأيت من شى يريبك من عائشة قالت له بريدة والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام على عجين أهلها فتأتى الدَّاجن(١) فتأكله قالت فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله ابن أبى بن سلول فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر . عشر المسلمين من يعذرنى(٢) من رجل قد بلغ أذاه فى أهل بيتى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال أنا أعذرك منه يارسول الله إن كان من الأوس(٣) ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت فقام سعد بن عباده وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن

(١) الداجن : الشاة التى تألف البيت ولا تخرج للمرعى .

(٢) من يعذرنى : أى من يقوم بعذرى فيمن آذانى فى أهلى إن كافأته على قبيح فعاله وقيل معناه من ينصرنى والعذير الناصر .

(٣) الأوس والخزرج – قبيلتان من المدينة كانوا قبل الإسلام فى عداوة مستمرة فلما جاء الرسول الف بينهم بإرادة الله تعالى .

اجتهلته الحمية(١) فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباده كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلون ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يسكتهم حتى سكتوا وسكت قالت وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبله لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكي استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى قالت فبينما نحن كذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشيء قالت فشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب(٢) فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى(١) حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال فقال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله ﷺ فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن إنى والله لقد عرفت أنكم قد

---

(١) اجتهلته الحمية : أى أغضبته واستخفته وحملته على الجهل .

(٢) قوله : إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله : معناه إن كنت فعلت ذنبا وليس ذلك لك بعادة — وهذا أصل اللمم .

(٣) قَلَص دمعى : معناه ارتفع وزاد لاستعظام ما يعيبنى من الكلام .

سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدّقتم به فإن قلتُ لكم إنى بريئةٌ والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقونى وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشى قالت وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله مبرئى ببراءتى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحىٌ يتلى ولَشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله عز وجل فىَّ بأمر يتلى ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء[1] عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان[2] من العرق فى اليوم الشات من ثقل القول الذى أنزل عليه قالت فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال أبشرى يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت لى أمى قومى إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمدُ إلا الله هو الذى أنزل براءتى قالت فأنزل الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ ﴾

عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتى . قالت فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئا أبداً بعد الذى قال لعائشة فأنزل الله عز وجل :

---

(١) البرحاء : بضم الباء وفتح الراء والحاء : هى الشده .

(٢) الجمان : بضم الجيم وتخفيف الميم وهو اللؤلؤ شبهت عرقه ﷺ باللؤلؤ فى الحُسْن .

﴿ ولَا يأْتَلِ أُولو الْفَضلِ مِنكُمْ والسَّعَة أَنَ يُؤْتوا أولِي الْقُربَى ﴾ إلى قوله ﴿ أَلَا تُحِبُونَ أنْ يَغْفر الله لَكَمْ .... ﴾[٣] » الحديث

ها أنت قد سمعت حادث الإفك وما رميت به العفيفة الطاهرة أم المؤمنين عائشة .

وها أنت قد عرفت ماقام به رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول من دور فى نشر هذا الاتهام الباطل الآثم .

وها هو رب العزة يعلن براءتها فى كتابه المجيد، كما أعلن براءة الفتاة المتهمة بالزنا والسرقة على لسان صاحبنا المتكلم فى مهده ، المتحدث فى صغره .

وما أكثر الأبرياء نعم ما أكثر الأبرياء !

وما أكثر المحتالين عليهم !

فقد قال جعفر بن محمد : أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار ، وكانت تهواه ، فلما لم يساعدها احتالت عليه فأخذت بيضة فألقت صفرتها وصبت على ثوبها البياض وبين فخذيها .

ثم جاءت إلى عمر صارخة ، فقالت : هذا الرجل غلبنى على نفسى وفضحنى فى أهلى ، وهذا أثر فعاله .

فسأل عمر النساء فقلن له : إن ببدنها وثوبها أثر المنى .

فهم بعقوبة الشاب فجعل يستغيث ويقول : يا أمير المؤمنين

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه باب حديث الإفك ص ١٠٣ وما بعدها جـ ١٦ .

تثبت فى أمرى ، فو الله ما أتيت الفاحشة وما هممت بها فلقد راودتنى عن نفسى فاعتصمت .

فقال عمر يا أبا الحسن ما ترى فى أمرها ؟ فنظر على بن أبى طالب إلى ما على الثوب ثم دعا بماء حار شديد الغليان فصب على الثوب فجمد ذلك البياض ثم أخذه واشتمه وذاقه فعرف طعم البيض وزجر المرأة فاعترفت .

ترى لو لم يكن على موجوداً ما الذى كان سيحدث ؟

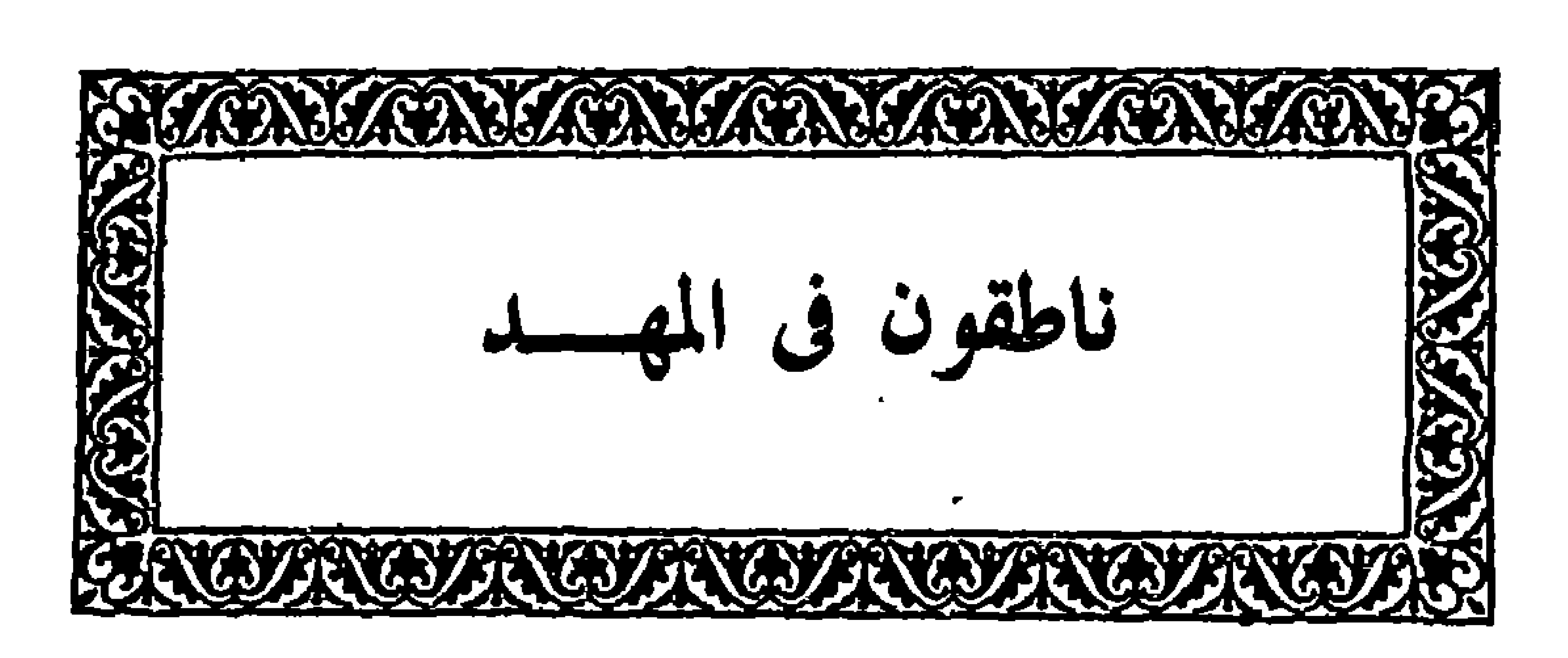
سيقام عليه الحد مع أنه برىء كل البراءة من ارتكاب الفاحشة ولكنه نجا بذكاء ابن أبى طالب وقوة فراسته .

وتعالوا بنا اليوم لنسأل المحاكم والعاملين بها عن شاهدى الزور وواضعى التهم على الأبرياء .

تعالوا بنا لنرى الضمائر الخربة التى وضعت الحديد فى أعناق الأبرياء وما ينتظر الذين ذهبوا ضحية الظلم إلا حكم الله الكبير المتعال المتطلع على السرائر والأحوال ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ .

وهكذا رأينا فى كتاب ربنا ﴿ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** ﴾ .

وربك على كل شىء قدير


ناطقون فى المهـــد

ها نحن أولاء على موعد معك – أيها المسلم الكريم – فقد وعدتك فى مقدمة هذا البحث الحديث عن الصبية الذين أنطقهم الله فى المهد سواء المجمع عليهم أم المختلف فيهم .

أمّا الثلاثة المجمع عليهم فقد حدثناك عنهم فى الفصول السابقة حديثا تحليليا .

وأما المختلف فيهم فهم موضوع حديثنا بإذن الرحمٰن .

فتعال معى لنرى سويا من هؤلاء ؟ وماذا قال عنهم العلماء؟

فقد وردت روايات عن النبى ﷺ توضح أن الذين تكلموا فى المهد أكثر من ثلاثة ومن ذلك ما ورد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « **تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم** »[1] .

أمّا عيسى بن مريم ، وصاحب جريج فقد سردنا أمرهما آنفا .

وأمّا شاهد يوسف فقد اختلف فيه العلماء، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الخلاف فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ .

وقال ما نصه :

« واختلفوا فى هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير ؟

على قولين لعلماء السلف فقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ قال

---

(١) ذكره الإمام ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ الجزء الثانى سورة يوسف .

ذو لحية وقال الثورى عن جابر عن ابن أبى مليكه عن ابن عباس كان من خاصة الملك وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم أنه كان رجلا .

وقال زيد بن أسلم والسدى كان ابن عمها .

وقال ابن عباس كان صبيا فى المهد .

وكذا روى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير أنه كان صبيا فى الدار واختاره ابن جرير الطبرى وقد ورد فيه حديث مرفوع عن ابن عباس أنه قال عن النبى ﷺ قال :

« تكلم فى المهد أربعة وهم صغار فذكر منهم شاهد يوسف» اهـ

وبهذا الذى ذكره ابن كثير يتضح لنا أن شاهد يوسف مختلف فيه .

وأما ابن ماشطة فرعون فقد ورد فيه حديث رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم وقصته .

أنه لما أراد فرعون إلقاء أمه فى النار قال الصبى لأمه اصبرى ياماه فإنك على الحق .

وهو مختلف فيه أيضا .

ولقد أوصل بعض العلماء عدد المتكلمين فى المهد إلى أحد عشر طفلا وهذا ما ذكره الشيخ الشنواى فى حاشيته فقال رحمه الله :

(واعلم أن جملة من تكلم فى المهد أحد عشر الثلاثة المذكورون فى الحديث المتفق عليه والرابع النبى ﷺ ، ففى سير الواقدى أن النبى تكلم فى أوائل ما ذكر . والخامس يحيى بن زكريا

عليهما السلام ففى تفسير الضحاك أن يحيى تكلم في المهد - أخرجه الثعلبي - والسادس الخليل عليه السلام كما ذكره البغوى فى تفسيره ، والسابع مريم عليها السلام كما قصها الله فى كتابه العزيز . والثامن شاهد يوسف كما فى حديث ابن عباس عند أحمد والبزار وابن حبان والحاكم وفى حديث أبى هريرة الذى خرجه الحاكم وفى حديث عمران بن حصين لكنه موقوف وفى مرسل هلال ابن يساف الذى رواه ابن أبى شيبة واختلف فيه فقيل كان صغيرا . وقيل كان ذا لحية وكان حكيما من أهلها : أى امرأة العزيز والتاسع صاحب الأخدود وذلك أن امرأة جيء بها لتلقي فى النار أو لتكفر ومعها صبى مُرْضَع فتقاعست[1] فقال لها يا أماه اصبرى فإنك على الحق . كما رواه أحمد والعاشر الذى قال لأمه وهى ماشطة بنت فرعون لما أراد فرعون إلقاءها فى النار اصبرى يا أماه فإنك على الحق كما رواه البزار والحاكم وابن حبان من حديث ابن عباس . والحادى عشر مبارك اليمامة فعن معيقب اليمانى أنه قال حججت حجة الوداع فدخلت دارًا فيها رسول الله ﷺ فجيء له بغلام فقال ياغلام من أنا ؟ قال أنت رسول الله . قال صدقت بارك الله فيك ، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد حتى شب وكنا نسميه مبارك اليمامه رواه البيهقى من حديث معرض بالضاد المعجمه .

وقد نظمهم الإمام السيوطى رحمه الله فقال :

تكلم فى المهد النبى محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف . وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم

---

(١) التقاعس : التكاسل والتراجع .

وطفل عليه مرَّ بالأمة التى   يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها   وفى زمن الهادى المبارك يختم

زاد بعضم :

وزاد لهم نوحا ويوسف بعده   ويتلوهم موسى الكليم المعظم

ها أنت – أيها المسلم الكريم – قد سمعت ما قاله الأئمة الأعلام ووعيت ما ذكره أهل الفضل والإحسان .

ودعنى أهمس فى أذنيك بهذا السؤال .

ما الذى بان لك من خلال معرفتك بهذا العجب العجاب ؟

أسمعك وأنت تجيب قائلا :

إن ما سمعناه أبان لنا فى وضوح وجلاء عظيم قدرة الله فى خلقه وكونه . هذه القدرة الإلهية التى أرغمت اللسان والجنان ، بل جميع جوارح الإنسان، أن تردد فى كل لحظة ما قاله العبد الصالح .

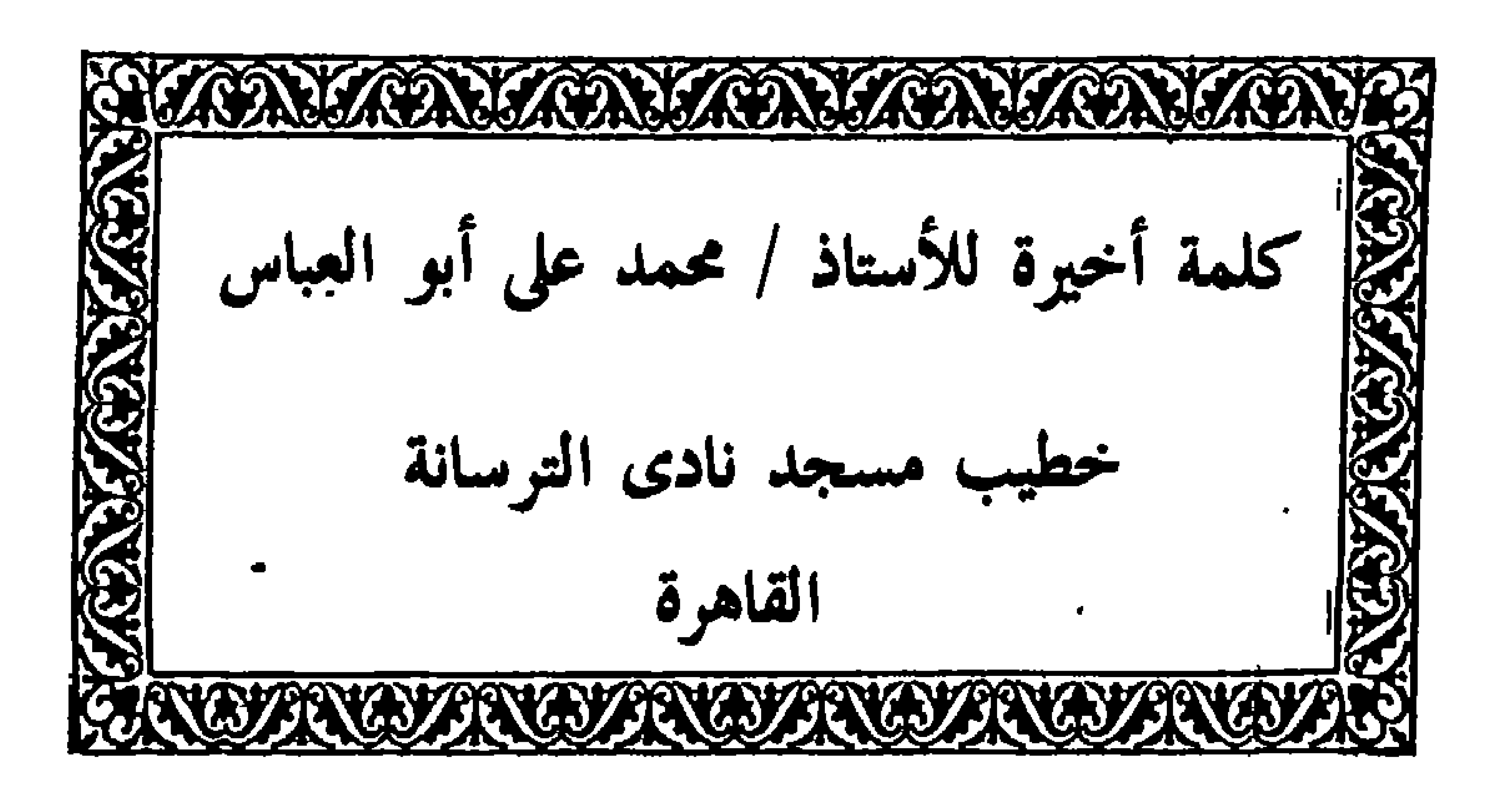
﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه
عادل عبد المنعم أبو العباس
بنى مجدول – إمبابه

---

(١) البقرة : ٢٥٩ .



بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لله المنعم المفضال ، وصلاة وسلاما على رحمة الله إلى الناس كافة سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ، ومن والاه .

وبعـــد

فقد تصفحت بالقراءة والاطلاع هذا البحث المتواضع عن « **الثلاثة الذين تكلموا فى المهد** » وهم المجمع عليهم أما المختلف فيهم فقد وصل عددهم إلى ثمان بالإضافة إلى المتفق عليهم .

ولاشك أن المؤلف وهو الشاب الطموح ذو القراءة والاطلاع قد أضفى على الكتاب أثر قراءته وعصارة فكره ومختلف مراجعه .

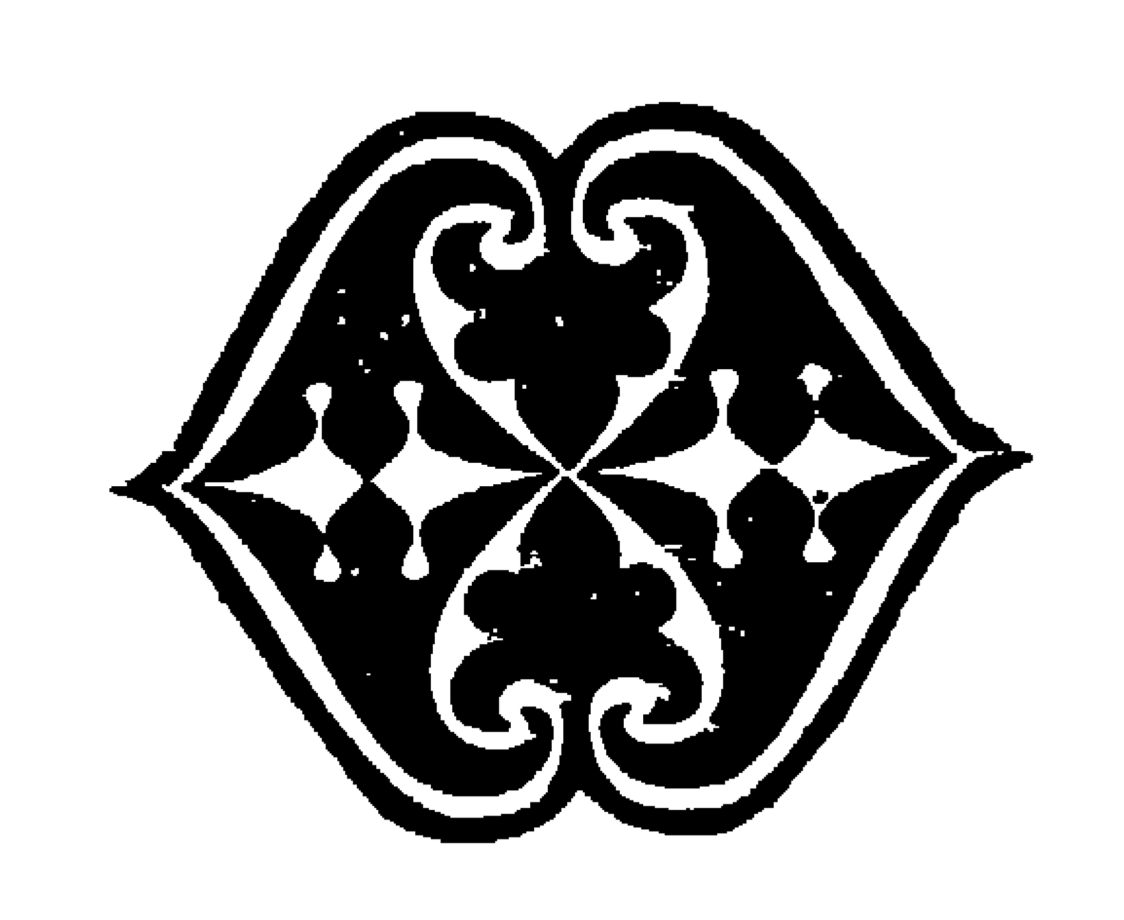
فحينما تحدث عن المسيح فصل وأطنب وأقام الحجة على اتفاق الأنبياء جميعا على الوحدانية لله رب العالمين ولمح الكاتب فى حديثه عن – جريج – بما يجرى على الساحة من حوادث الاعتداء على الأمهات والآباء، وتحدث عن الاتهامات الباطلة التى تدور

فى المجتمع وتلصق بالأبرياء ويتخذ لها شهود الزور بالجبروت والطغيان وقوة الفجور .

وختم ببيان من نطقوا فى المهد ممن اختلف فيهم ولا يسعنى إلا أن أبارك الكاتب أول باكورة إنتاجه للمكتبة الإسلامية . سائلا المولى عز وجل أن يجعله لسان صدق دائم فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محمد على أبو العباس



مراجع البحث

١ - تفسير الإمام ابن كثير	الحافظ ابن كثير
٢ - المنتخب فى تفسير القرآن الكريم	لجنة من العلماء
٣ - التفسير الوسيط	لجنة من العلماء
٤ - إظهار الحق	الشيخ رحمت الله الهندى
٥ - الله واحد أم ثالوث	محمد مجدى مرجان
٦ - الديانات القديمة	محمد أبو زهرة
٧ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان	ابن القيم الجوزية
٨ - هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى	ابن القيم الجوزية
٩ - قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار
١٠ - البداية والنهاية	الحافظ ابن كثير
١١ - صحيح الإمام مسلم	للإمام مسلم النيسابورى
١٢ - الأدب المفرد	للإمام البخارى
١٣ - حاشية على مختصر البخارى	الشيخ الشنواى
١٤ - رياض الصالحين	الإمام النووى
١٥ - القرآن والمتمردون	محمد عبد الله السمان

الفهرس

الفصل الثانى : « ثانى اثنين تكلموا فى المهد »

الفصل الثالث : ثالث ثلاثة تكلموا فى المهد

رقم الايداع: ٨٧/٨٢٩٩

